

التاريخ والقانون والحادثة

(5)

علامات على الطريق

للاستاذ: محمد بن الأصغر المحامي

بهذه الحلقة الخامسة من سلسلة « التاريخ ، القانون والحادثة » وفي إطار ركن « الإتحاف التاريخي » نكون قد مررنا على عدة محطات من حياة « القانون الوضعي » في البلاد التونسية ... لأنه هناك شخصيات أخرى لا يمكن أن نغفل عن مساهماتها وأحياناً حتى عن « مواقفها » ولو كانت منطلقة من « لوعي » بالموضوع وكذلك الأمر بالنسبة للتيار الذي تولّد عن أفكار جماعة تونس الفتاة .

هذه الشخصيات هي ، شيخ المدينة ، محمد الميزع والفقير محمد الخضر حسين والزعيم عبد العزيز الثعالبي والرئيس محمد المالح ومفتي الديار التونسية محمد الفاضل بن عاشور .

أولاً : شيخ مدينة تونس ومحمد الميزع :

إن خطة شيخ مدينة تونس أو الحاضرة تعني رئاسة البلدية وكان شيخ المدينة يساعده خاصة شيخا الرضين ، أحدهما على الرض الشمالي (باب سوق) وثانيهما على الرض الجنوبي (باب الجزيرة) وذلك حتى سنة 1883 حين أصبح شيخ المدينة يساعده كاهيتان يعينان بأمر ومجلس بلدي يتكوّن من ثمانية (8) أعضاء تونسيين مسلمين ومثّلهم من الأوروبيين وعضو واحد عن الجالية الإسرائيلية (1) ... وكان أول نصّ نظم بلدية تونس الحاضرة سابقاً عن انتصاب الحماية ، وذلك منذ 30 أوت 1858 ... أما الآثار التي سنتوقف عندها فهي القرارات الصادرة عن شيخ المدينة محمد الميزع على إثر الواقعة المعروفة بالنازلة التونسية أو قيامة البلدية .

وهذه الواقعة قد جدّت سنة 1885 أي بعد مضي أربع سنوات عن انتصاب الحماية في ماي 1881 ... وكان من مطالب الأهالي ما يتصل بالبلدية وما يتصل بحفظ الصحة (Hygiene) مثل : تجهيز الميت المسلم وصيانة المقابر الإسلامية وقانون صيانة الحيوانات ... إلى جانب مطالب أخرى تحديثية تتصل بالتعليم والحياة النيابية ... إلخ .. (2)

أمّا ما قام به شيخ المدينة محمد الميزع تنفيذاً للأمرين العليين المؤرخين في 8 شوال 1302 و 5 شعبان 1302 فهو ما يلي بيانه

- لا يكون الدفن في حاضرة تونس إلا بإذن من رئيس المجلس البلدي ...

- ضرورة الشهادة الطبية بالنسبة للأموات غير المسلمين وشهادة الفاسل أو الفاسلة بالنسبة

للأموات المسلمين والفاسلون المعمول بشهاداتهم معتمدون لدى رئيس المجلس البلدي ...
- تحرير حجة الوفاة من قبل المجلس البلدي وقد صدر في 6 شعبان 1302 هـ / 1885 م
قرار متضمن لاسماء الأطباء والفاسلين والفاسلات المعتمدين لدى المجلس البلدي (3) ... كما
اقتربت هذه الإصلاحات بتسييج مقبرة سيدي سفيان عند باب الخضراء وإصلاح طرقات البلاد
(4) ... إلخ

إن هذا العمل لشيخ المدينة محمد المبرع يعتبر تحديثياً نظرا إلى أنه قد علق مسألة الدفن
وأخضعها إلى المنطق العلمي من خلال تقليب رأي الطب والخبراء على الموقف ، وكذلك جعل
مسألة الدفن مراقبة من طرف الإدارة من خلال بلدية الحاضرة ...

ثانيا : الفقيه محمد الخضر حسين

إذا كنا لم نستطع إفادة القارئ بأشياء عن حياة شيخ المدينة محمد المبرع فإن التعريف بالشيخ
محمد الخضر حسين أمر يسير نظرا لأهميته كعالم في ميادين علوم العربية وعلوم الشرع
بمختلف فروعها .

ثانيا : 1 : محمد لخضر حسين

إن محمد الأخضر بن الحسين وهو المعروف باسم محمد الخضر حسين ، قد ولد بنقطة
بالجريد التونسي يوم 21 جويلية 1873 م / 1293 هـ وهناك من يرى أنه قد ولد سنة 1874 م
.. وهو من عائلة علم ودين ، درس بجامع الزيتونة بالعاصمة بداية من سنة 1887 إلى أن
تحصل على التطويع سنة 1898 ... ثم سافر إلى المشرق سنة 1899 ... وسافر إلى الجزائر
سنة 1903 وأعاد الكرة سنة 1904 ... وبعد عونه تولى القضاء ببنزرت سنة 1905 والتدريس
بجامع الزيتونة سنة 1906 ... وعلى إثر نجاحه سنة 1907 في مناظرة التدريس من الطبقة
الثانية أصبح مدرسا بالمدرسة الصادقية ومحاضرا بالجمعية الخلدونية ... فأنشأت له فرصة
المشاركة في حركة اصلاح التعليم الزيتوني ... وعن اصلاح التعليم انتقل إلى الإصلاحين
الاجتماعي والسياسي ...

تعد هذه المسيرة التونسية عاونه فكرة الرحلة إلى المشرق العربي فحققتها ... وقد كانت له
محطات خاصة بسوريا وبالأستانة ... وأخيرا بمصر حيث بلغ أرفع المناصب العلمية وهي مشيخة
الأزهر المساوية لعمادة الجامعات العلمية وقد سبق أن أصبح عضوا أكاديميا بالجمع العلمي
بدمشق (سوريا) ... وقد توفي بمصر ودفن بها يوم 2 فيفري 1958 م / 1377 هـ (5)
وكان سافر إلى برلين بألمانيا .

ثانيا : 2 : آثار الخضر حسين

لقد أحصى الأستاذ علي رضا الحسيني (التونسي) المحامي الاعمال الكاملة للشيخ فإذا بها
قد غطت ميادين عديدة من علوم الشرع والعربية والتاريخ بين كتب ورسائل وخواطر شعرية (6)

ثانيا : 3 : استنتاج أفكاره التحديثية (1)

تتشخ النزعة السلفية والمحافظة من مجموع مؤلفاته وخاصة منها « الشريعة الاسلامية

صالحة لكل زمان ومكان» (7) أو «نظرات في الإسلام وأصول الحكم» (7) و «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» (7) للكاتب والقاضي الجري ، علي عبد الرازق .
 إلا أن تفحص أفكار ومواقف الشيخ تجعلنا نقف على مغارقات غريبة بالنسبة لما يبنو من انسجام في المنظومة الفكرية للشيخ محمد الخضر حسين . بحيث نراء يمجّد الحداثة الفكرية والقانونية من حيث لا يشعر ولا يدري .

ثانيا : 3 - أ - مدحه لدستور عهد الأمان :

في معرض ذمه للإستعمار الفرنسي بتونس ، نجد الشيخ الخضر حسين يحيذ بعض أعمال البايات ، ومن ذلك دستور عهد الأمان ، وقد تحدّث حسين عن الحفل العظيم الذي حضره الأعيان وتلى فيه نصّ دستور عهد الأمان

وكنا قد بينا بإطناب البعد الحداثي المستنتج من المحتوى القانوني الوضعي الذي اتسم به دستور عهد الأمان من اقرار لحق الملكية لغير المسلم في دار الإسلام ومن أمان لكل السكان ولو كانوا غير مسلمين ومن مساواة جبايئة ومن حرية للعبادات والشعائر ... (9)

وكل ما تقدّم يعني أنه لو أتيت الفرصة للشيخ الخضر حسين ولأمثاله لفهم كنه القانون الوضعي لكان ثمنه ووضعه في إطاره العادي .

ثانيا : 3 ب - مدحه لحرية العبادات والشعائر

هناك موقف آخر للشيخ محمد الخضر حسين دل على تحييده للقانون الوضعي وهو مفهوم من محتوى خطبته بمناسبة تدشين مسجد بيرلين حيث قال : « ... الحكومة التي تزدهر سياستها والتي يبتهج الشعب بتصرفاتها هي الحكومة التي تقيم سياستها على ثلاثة مبادئ » (10) ... وبين هذه المبادئ وكان محتوى المبدأ الثالث « منح الناس الحرية المطلقة حتى يتمتعوا بحقوقهم الشرعية وحتى يسلك كل فرد الطريق الذي يدلّه عليه ضميره ... (11) ... وقد اعتبر أن الحكومة الألمانية « ... تفوقت تفوقا كبيرا على الحكومات الأخرى ... » (12) ... وذلك « يعطفا على مختلف الأجناس من مختلف الأديان ، لا سيما المسلمين » (12)

.....

فهل أن هذه اللغة التي اعتمدت على الكلمات « الحرية المطلقة » و « حرية الضمير » و « اختلاف الأجناس » و « اختلاف الأديان » تختلف كثيرا من مبادئ حقوق الإنسان في نسختها الوضعية واللائكية رغم صدورهما عن كاتب قام بنقد ونقض محتوى كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلي عبد الرازق ... ؟ ؟ ؟

وهل كان الشيخ محمد الخضر حسين سيفير رأيه لو علم أن الحكومة الألمانية لم تسمح ببناء جامع للمسلمين على أرضها على أساس العطف وإنما على أساس مبادئ قانونية هي خاصة :
 + الفصل 2 - الفقرة 3 من القانون الأساسي (ما يعادل الدستور) لألمانيا الذي ينص على أن الجنس والدين والسياسة وغيرها ليست من نواحي التفرقة بين الناس ولا هي من نواحي كسب المزيد من الحظوظ . (12) .

+ + الفصل 18 من الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية الذي ينص على أنه لكل

فرد الحق في حرية الفكر والضمير والديانة (13)

طبعاً لم يكن الشيخ محمد الخضر حسين سيغير رأيه ، بل أنه قد يقف بفضل ذلك الحدود الفاصلة إجرائياً وجوهراً بين مفهومين كثيراً ما وقع الخلط بينهما وهما الإلحاد من جهة واللائكية والعلمانية من جهة ثانية وربما كان راجع موقفه من مسألة « فصل الدين عن السياسة » وعدم اعتبار ذلك ضلالة (14) ... لأنه لو لا فصل الدين عن الدولة ما كانت ألمانيا لتسمح ببناء جامع للمسلمين على أرضها المسيحية .

ثالثاً : جماعة « تونس الفتاة »

إن حركة « الشباب التونسي » أو « الشبان التونسيين » أو « تونس الفتاة » على غرار « تركيا الفتاة » لفظ وعبرة هي ما عبرت عنه الأوساط الاستعمارية الفرنسية في تونس ب : « Jeunes Tunisiens » وهم خريجو المدارس والجامعات الفرنسية الذين بدأوا ينخرطون سواء بسلك المحاماة في العشرية الأولى من القرن العشرين (15) أو بغيرها من الأسلاك وخاصة المهن الحرة .

واقدم جمعوا إلى أنشطتهم المهنية العمل الوطني مثبّرين إشكاليات فكرية حصرها الباحث خالد قزميز في محاور منها :

أ - صدمة الأجتناس

ب - قضية التعليم

ج - سياسة التجمعات والجمعيات (16)

وقد كانت لهم مواقف أخرى تخص التنظيم القضائي والعدالة الجنائية .

ثالثاً : 1 : التنظيم القضائي <http://Archivebeta.Sakhr.it>

لقد اعتنى الأستاذ حسن التلاتي المحامي وهو من الجماعة بقضية التنظيم العدلي أو القضائي ، موجهاً نقده للعدلية التونسية وذلك على ضوء ما تلقاه من العلوم السياسية والقانونية في الجامعات الفرنسية فنشر مجموعة من المقالات جمعها تحت عنوان « La Justice Tunisienne » أي « الجهاز القضائي التونسي » ، ذلك أن هذا الجهاز قد إعتراه الكثير من العيوب حسب شارل اندري جوليان (17) .

ثالثاً : ب : القانون الجنائي :

اعتنى بهذا الباب مثقفون تونسيون ، أمثال الأستاذ عبد الجليل الزاوش المحامي كمختص في القانون (18) وكرائد في المجال الاقتصادي (19) كما اعتنى بع الوطني الشاذلي درغوث كفلاح متفرغ رأى طرق موضوع الظلم وعدم المساواة بين الفرنسي والتونسي من هذا الباب (20)

والشاذلي درغوث لئن لم يكن من جماعة « تونس الفتاة » فهو من رفاق الزعيم عبد العزيز الثعالبي الذين قال فيهم الشاعر الوطني خزندار حين وقع نفيهم :

أبكي لفرقتهم وهم أحياء ** سبعا بكمهم تونس الخضراء (21)

وقد كان من بين هؤلاء السبعة عدة عناصر من « تونس الفتاة » أمثال حسن القلائي ومحمد نعمان فهو (أي درغوث) قريب منهم وعن أفكارهم وعن توجهاتهم .
وهذا النفس التحديثي القانوني مرتبط بالرؤية التحديثية التونسية بصفة عامة والتي سنتعرض لها في الإبان .

رابعا : الزعيم عبد العزيز الثعالبي :

ان الزعيم عبد العزيز الثعالبي جزائري مثل حسن القلائي سابق الذكر ، ولد بتونس سنة 1874 م / 1293 هـ وانخرط بالتعليم الزيتوني وتخرج بشهادة التطويق سنة 1896 ، وهو الآخر مثل الشيخ الخضر بن الحسين قد هاجر وسافر كثيرا . وإذا كان الأول يقصد بسفره تحصيل العلم ويته فإن الثاني كان يرمي إلى التحسيس بالقضية التونسية ، وهو رغم ثقافته الزيتونية قد انضم إلى الشبان التونسيين المتخرجين من الجامعات الفرنسية حيث أصدر نشرتها العربية :التونسي . وقد توفي سنة 1944 . وقد كانت له مؤلفات عديدة مثل :

– تونس الشهيدة .

– الروح التحررية في القرآن

– التعليم الاستعماري ووضع المحاكم التونسية (21)

وغيرها

وقد ذكرنا هذه التأليف لما لها من علاقة بالحدثة بصفة عامة وبالحدثة القانونية بصفة خاصة ، إذ أن مؤلفاته كثيرة ومتعددة الأغراض .

رابعا : 1 : الحدثة بصفة عامة

إن كتاب « الروح التحررية في القرآن » الذي وضعه الثعالبي بإعانة الأستاذ سيزار بن عطار المحامي والأستاذ الهادي السبعي ، المترجم لدى المحاكم قد طفت عليه روح مؤيدة بحماس للفرنسيين في خصوص ما قامت به فرنسا وأوروبا بصفة عامة من عمل تمديني في العالم الإسلامي وإن هذا العمل التمديني هو الكفيل بإزاحة الخرافات والأفكار المسبقة (22) ... مما جعل المؤرخ أرنولد قرين يقول « نص الروح التحررية في الإسلام لا يعكس صورة الثعالبي محرر جريدة (سبيل الرشاد) » ومحرر (النشرة العربية للشباب التونسي » (22)

رابعا : 2 : الحدثة القانونية بصفة خاصة :

إن كتاب « تونس الشهيدة » الذي وضعه الثعالبي بإعانة الأستاذ أحمد الصافي المحامي فيه أفكار توحى بأن الزعيم يقبل بعض الأفكار المتصلة بالحدثة القانونية ، وذلك كما يلي :

– السلطة التشريعية الإسلامية :

يرى الثعالبي أنها لئن كانت تتضمنها حدود وإنما ليست اعتبارية ، ولكن كان دورها ضيقا في مجال الأحوال الشخصية فهو واسع في إطار التشريع المدني (23)
وهذا اقرار بالطابع الإنساني غير الفوقي في ميدان المعاملات المدنية (1).

وهو يرى أن المشرع هو صاحب السلطة العليا (الباي) وعليه الرجوع إلى رأي ممثلي الشعب (24)

فالمعمل التشريعي بشري عنده ولا يمر عبر مؤسسة الفقيه أو مؤسسة مشيخة الإسلام (!) وأكثر من ذلك فإن الثعالبي يجعل المحيط العالمي (ولا يحصر هذا المحيط في دار الإسلام الكبرى ، من أسباب تطوير التشريع المدني (24) (!) معترفا بضرورة الإستجابة للتطور الاقتصادي العالمي (!) (24) ولقد نوه الشيخ الثعالبي بمستور عهد الأمان واعتبره ميثاقا أساسيا لحقوق وواجبات الإنسان والمواطن (25)

■ السلطة القضائية :

ينتقد الشيخ الثعالبي القضاء المدني التونسي (أو محكمة الوزراء) بأنها عديمة أصول المحاكمة والنصوص التشريعية وإنها كانت تتبدع لكل قضية صفتها على حدة من جرم أو وجحة أو عقوبة أو حق مدني (26)

وهذا يعني أن الثعالبي يتنادى بمبدأ معروف في القانون الوضعي وهو شرعية الجريمة والعقوبة أي بضرورة أن « لا عقاب بدون نص سابق الوضع » .. (!) .. خلافا لما هو في التشريع الإسلامي حيث إن « التعزير » هو حرية مطلقة للقاضي .

ومن هذين المثالين نفهم أن الثعالبي لم يكن ضد القانون الوضعي بل هو لا يرى مانعا في الأخذ به ما لم يتضارب مع مبادئ الإسلام الثابتة التي لا يجوز معها اجتهاد .

خامسا : الرئيس محمد المالحى وشرح القانون الوضعي :

وند الرئيس الشرفي لمحكمة التعقيب محمد المالحى بتونس خلال سنة 1889 وتوفي بها في 27 أكتوبر 1980 ، ولم يتخرج لا من جامع الزيتونة قاضيا شرعيا ولا من مدرسة للحقوق ، فهو قد عمل كاتبها ثم مترجما بمحكمة الوزارة بداية من سنة 1920 بعد انتهاء تعليمه الابتدائي والثانوي بالمدرسة الصادقية (27)

على أنه وبداية من سنة 1922 أصبح حاكما بمحكمة الوزارة أين ترقى من حاكم إلى مكلف برئاسة دائرة الاستئناف المدني إلى رئيس للدائرة المذكورة فكاهية لرئيس دائرة التعقيب (27) . وبعد الاستقلال عين سنة 1956 رئيسا لدائرة بمحكمة التعقيب (القضاء الموحد) ، ثم وفي سنة 1958 أصبح رئيسا أولا لنفس المحكمة ، وبعد التقاعد ، سنة 1956 ، صار رئيسا شرفيا للمحكمة المذكورة (27)

على أنه وبعد التقاعد واصل خطة إدارة المدرسة العليا للحقوق Ecole superieure de droit إلى أن أنهى العمل بهذه المؤسسة صائفة 1972 حين أصبحت تشكل «القسم العربي» بكلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية بتونس .

على أنه من الجدير أن نلاحظ أن الأستاذ محمد المالحى قبل أن يكون مدرسا ثم مديرا للمدرسة العليا للحقوق فإنه قد كان يقوم بترجمة دروس الأساتذة والقضاة الفرنسيين على طلبة الحقوق التونسية بنقل معانيها من الفرنسية إلى العربية وهو ما جعله يمارس تلك النصوص ويتعامل معها ككاتب وك « شارح »

خامساً : 1 : تعريب شرح القانون التونسي :

بسمي من قداما وطلبة الحقوق التونسية (السنة الجامعية 1327 هـ / 1948 م) يتقدمهم
السادة : الحفناوي عريب وعمر العياري وعز الدين الزيتوني وصالح بن الطاهر والهادي
الورتاني وعبد القادر القدي وقع نشر دروس الأستاذ دوبلا (Duplat) في القانون المدني
معرّبة من طرف الأستاذ محمد المالقي وكان وقتها يشغل خطة كبير رؤساء محكمة الوزارة (28)
وكاتب شرح الإلتزامات (29) ووسائل الإثبات (30)

خامساً : 2 : شرح القانون التونسي :

بعد الإكتفاء بالتعريب ، ينتقل الأستاذ محمد المالقي إلى التأليف وذلك دائما في إطار القانون
المدني التونسي (31) والكتاب يشرح ، ووسائل الإثبات (الإقرار - البينة بالكتابة - البينة
بالشهادة - القرائن - اليمين) (32) ويعد ذلك يشرح انتقال الإلتزامات (الإحالة - الحلول -
الحالة) (33) ثم يختم بطرق ما يترتب على الإلتزامات (34)

كما نشر مركز البحوث والنشر لكلية الحقوق والعلوم السياسية والإقتصادية بتونس سفرا
بغفوان محاضرات في شرح القانون المدني التونسي منسوب هو الآخر للرئيس محمد المالقي ،
وقد وضع له المقدمة الرئيس محمود شمام . وهو باكورة الأعمال التي نشرتها كلية الحقوق
باللغة العربية وقد نشر مرتين (1980 و 1991) ...

ومجموع هذه الأسفار تبحث في مجلة الإلتزامات والعقود التونسية

خامساً : 3 : أول معالجة تونسية للقانون الوضعي :

ان ريادة الشيخ محمد السنوسي (35) كانت في مرحلة الديب ، أما ريادة الأستاذ محمد
المالقي فهي في مرحلة بدأ فيها التعامل بالقانون يصبح من الأشياء الراسخة عمليا على الأقل ،
ذلك أنه لم يسبق تونسي آخر الرئيس محمد المالقي في شرح مجلة الإلتزامات والعقود بذلك
الشكل المكثف كيفما سبق بيانه

ولا يهنا ان كان محمد المالقي ، مترجما أو مؤلفا ، فالوقوف هو دائما موقف المثبني للقانون
الوضعي والمقبل عليه وأن مصدر القانون المدني التونسي هي مجلة الإلتزامات والعقود / Code
des obligations et des contrats الواقع سنه في 15 ديسمبر 1906 التي اعتبرها
المؤرخ آرثر بلگران A. Pellegrin . بداية إصلاح الجهاز القضائي (36) .

ولقد أوضح المستشرق الإيطالي دافيد سانتيلانا D. Sanilana بوصفه مقرر لجنة تحرير
مجلة الإلتزامات والعقود مصادر هذا القانون ومرجعياته وهي غربية المرجعية في الغالب (المجلة
الاتحادية (أي السويسرية) والمجلة الإيطالية التجارية والمجلة المدنية الألمانية والقوانين
البريطانية ، وفقه القضاء الفرنسي عدا ما صدر عن محاكم الجزائر) (37) مع حضور قليل
لمصادر التشريع الإسلامي من خلال المقاربة الآتية : « إن الشريعة الإسلامية لم تكلف بالأخذ
بالعادة أي بأمر الدنيا بل غيرتها ، وإن التشريع المبني على العادة يتغير بتغيرها » (38)
وهكذا فإن الرئيس محمد المالقي قد تعامل مع هذا القانون غربي المرجعية بحب صوفي لإيمانه

أنه قانون المستقبل وهو ما حدث فعلا ، قبل وبعد توحيد القضاء في عهد الاستقلال

سادسا : مفتي الديار التونسية الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ومعهد القانون الوضعي :

ولد مفتي الديار التونسية وعميد كلية الشريعة وأصول الدين محمد الفاضل بن عاشور بضاحية المرسى (أحواز العاصمة) خلال سنة 1909 ودرس بجامع الزيتونة بتونس (1923) ، وبالمدرسة العليا للغة والأدب العربية بالطراين (1929) وكلية الآداب بجامعة الجزائر (1931) .. ثم تولى التدريس بالجامع الأعظم ، وأدار الخلدونية ومعهد البحوث الإسلامية التابع لها

وانتخب عضوا بجامع عملية مثل ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ومجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة (38)

ولئن كانت ثقافة الشيخ الفاضل ابن عاشور زيتونية فإن ميولاته أدبية حسب تأليفه ، الحركة الأدبية والفكرية في تونس وأركان النهضة الأدبية بتونس (40)(39) ، أو تاريخية وذلك من خلال التراجم مثل : تراجم الأعلام وأركان الحياة العلمية في تونس وأعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي ... الخ ... (41)

إلا أن الشيخ الفاضل الذي انتمى إلى ملك القضاء الشرعي بصفته قاضي القضاة المالكية (39) قد كان له موقف إيجابي من القانون الوضعي ، وذلك قبل أن يصبح قاضيا بمحكمة التعقيب (القضاء الموحد) أي قبل أن يلتقي مع القانون الوضعي على صعيد الممارسة المهنية والوظيفية .

ARCHIVE

خامسا : I : معهد الحقوق العربي

حين صار الشيخ محمد الفاضل بن عاشور رئيسا للجمعية الخلدونية (1945 - 1949) عمل من ذلك الموقع على تدعيم حركة الطلبة الزيتونيين المناهية ببعث تعليم زيتوني عصري (42) فقام ببعث معهد البحوث الإسلامية سنة 1946 (43) وكذلك معهد الحقوق العربي (44) وكان الهدف من بعث المعهد الأخير تكوين إطارات قضائية مكونة على أصول قومية إسلامية عربية (44) حسب الأستاذ المختار عمار (44) .

ويقع قبول التلاميذ بالمعهد شرط أن يكونوا حاصلين على إحدى الدبلومات الثلاثة الآتية وهي :
الباكالوريا والتحصيل وديبلوم الصداقية وكذلك ديبلوم الخلدونية ... (45)
والملفت للانتباه أن هذا المعهد الذي أسسه شيخ زيتوني ، وقاض مالكي يدرس المواد الآتية وكلها من القانون الوضعي وهي :

- القانون العام الدولي

- القانون الدستوري والإسلام

- دول القانون الدستور الفرنسي والانقليزي

- الاقتصاد السياسي

- القانون الروماني (46)

وإن المدرسين في معظمهم من المحامين المتخرجين من الجامعات الفرنسية أمثال الأساتذة ،
صالح بن يوسف والهادي نورية وفتي زهير (46)
وذلك إلى جانب التشريع الإسلامي وتاريخ التشريع التونسي (46)
على أن معهد الحقوق العربي لم يعمر طويلا إذ قد يكون غلق أبوابه سنة 1948 (47) ويبقى
المعهد الظلوني إلى سنة 1958 ...

خلاصة :

ما هذه إلا فكرة عن محطات عاشها القانون الوضعي في البلاد التونسية هي بمثابة العلامات
على الطريق لأنه يصعب سبر كل مظاهر هذا القانون وتجلياته في بلد ينتمي إلى البحر الأبيض
المتوسط ، بحر التفتح والتفاعل الإيجابي مع حضارات الخصوبة والعطاء .
أما الحلقات القادمة من سلسلة (التاريخ ، القانون والحدائق) فإنها سوف تعتنى بالحدائق
القانونية على مستوى السلطة التنفيذية ، مركزية و جهوية ومحلية ليكتمل المشهد وتوضح الرؤية
أكثر فأكثر ...
وقد نعرّج على المطالب الشعبية الرامية إلى المطالبة بالتحديث بصفة عامة ، وبذلك بقدر
الإمكان .

* الإحالات :

- 1 - Mohieddine Mabrouk l'administration tunisienne sous le protectorat in : la re-
vue juridique C.E.R.E.S Tunis N1 octobre 1974 (tiré a part pp 85 86)
- 2 - محمد بن عثمان السنوسي : النازلة التونسية - تحقيق محمد الصادق بسيس الدار التونسية للنشر - تونس -
1976 ص من 57 إلى 62 <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- 3 - م. ب. ج. السنوسي : النازلة التونسية م ص ص 165 - 168
- 4 - م ب ج السنوسي : النازلة م ص ص 168
- 5 - محمد موعدة : محمد الخضر حسين - حياته واثاره الدار الحسينية للكتاب - سوريا - 1992 (ط 2) -
الصفحات 13 و 14 و 21 و 24 و 30 و 32 و 36 و 38 و 39 و 42 و 47 و 59 و 3 و 76 ، 119 .
- 6 - محمد موعدة : محمد الخضر حسين - م ص - صص 231 و 232
- 7 - محمد موعدة : م ص - ص 231
- 8 - محمد بن الأصغر : تونس - 67 عاما تحت الاحتلال الفرنسي - مشكلة الحدائق والشيخ محمد الخضر حسين -
مجلة الإتحاف اللجنة الثقافية الجهوية بسليلانة - جانفي 1990 - العدد 22 ص 41 .
- 9 - محمد بن الأصغر : التاريخ ، القانون والحدائق (4) - الشيخ محمد السنوسي أول من سعى إلى الحدائق
القانونية سميا - مجلة الإتحاف - اللجنة الثقافية بسليلانة - ديسمبر 1996 - العدد 74 .
- 10 - محمد الخضر حسين : تونس 67 عاما تحت الاحتلال الفرنسي تحقيق كمال العريف - الكتاب الشهري
للحرية - عدد 4 - (د - ت) ص 62 .
- 11 - م - الخضر حسين - تونس - 67 عاما تحت الاحتلال م ص - ص 67
- 12 - Maurice Duverger : Constitutions et documents politiques P U F collection

Them is < Textes et documents Paris 1978 pp 458 et 459 .

13 - الاتفاقيات الثوباية الخاصة بحقوق الإنسان والبر وتكول الاختياري - الأمم المتحدة - مكتب الإعلام - مصر 25 و 35 .

14 - محمد الخضر حسين - تونس 67 عاما من الاحتلال الفرنسي م ص 24 .

15 - محمد بن الأصغر : محاربة لكتابة تاريخ المحاماة بتونس - بمجلة المحاماة الهيئة الوطنية للمحامين بتونس - العددان 1 و 2 لسنة 1994 ص 14 .

Khaled guezmir : JEUNES Tunisiens Alif tunis 1986 pp 77 : 78 : 87 : 89 .

16 - محمد بن الأصغر : في الذكرى الخامسة لتأسيس اتحاد المغرب العربي - المناضل حسن الغلاطي ... نموذج للمناضل من أجل وحدة مصير تونس والجزائر جريدة - الصباح - تونس 9 فيفري 1994 .

17 - محمد بن الأصغر : نفس المصدر السابق

18 - محمد بن الأصغر : نفس المصدر السابق

19 - محمد بن الأصغر : المحاماة في تونس : التاريخ العام والإشعاع السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي (مخطوط)

20 - لم استحضرت عنوان تأليف الشاذلي درغوث

20 - محمد العياري : محمد الشاذلي خزندار - أمير شعراء تونس - طبع الشركة التونسية لفنون الرسم - تونس - 1975 ص 41 .

21 - زهير اللوايدي : الوطنية وفاجس التاريخ في فكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي - دار سراس - تونس - 1985 ص 5 - 6 - 7 - 16 .

22 - ترنولد قرين : العلماء التونسيون ، تعريب ، أسماء عطلي والمفتاري ، صمائية المجمع التونسي / بيت الحكمة ودار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1995 ص 249 و 250 .

23 - عبد العزيز الثعالبي : تونس الشهيدة ترجمة سامي الجندبي - دار القدس - بيروت - 1975 ص 30 .

24 - ع . ع الثعالبي : تونس الشهيدة م ص 30 .

25 - ع . ع الثعالبي تونس الشهيدة م ص 30 .

26 - ع . ع الثعالبي لند تونس الشهيدة - م ص 74

27 - محمد بوزينة : مشاهير التونسيين - طبع شركة فنون الرسم والنشر والصحافة - تونس - 1988 - ص 421

28 - الأستاذ دويلا : الجزء الثاني من شرح مجلة الالتزامات والعقود التونسية - تعريب الحقوق الفليط الأستاذ محمد الماتقي - كبير رؤساء محكمة الوزارة - طبعة أولى - مطبعة التليلي - تونس (د ت) - 172 صفحة

29 - المصدر السابق : ص 03 - 125

30 - المصدر السابق : ص 132 - 165 .

31 - محمد الماتقي : الحلقة الثانية من محاضرات في شرح القانون المدني التونسي - طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم - تونس - 1376 هـ / ... م .

32 - محمد الماتقي : المصدر السابق ص 07 - 140 .

33 - م - الماتقي : المصدر السابق : ص 149 - 190 .

34 - م - الماتقي : المصدر السابق - ص 194 - 217 .

35 - محمد بن الأصغر : التاريخ ، القانون والحداثة (4) الشيخ محمد السنوسي - م ص .

- Arthur Pellegrin : Histoire de la tunisie depuis les origines editions bousla- ma tunis 1975 p 237 :
- 37 - سانتيلانا : تعريب كلمة الأستاذ سانتيلانا مقرر اللجنة التي تألفت لإعداد مشروع القانون المدني والتجاري التونسي في مجلة الالتزامات والعقود التونسية بتعليق الأستاذ محمود بن الشيخ المدمي العام بالعدل 1966
- 38 - سانتيلانا المصدر السابق
- 39 - محمد بوزينة : مشاهير التونسيين م س ص 391 .
- 40 - م بوزينة مشاهير التونسيين م س ص 392 .
- 41 - م . بوزينة : مشاهير ... م س ص 391 - 392 .
- 42 - المختارين أحمد عمار : الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور - حياته وأثره الفكري - الدار التونسية للنشر تونس 1985 - ص 53 .
- 43 - م . عمار : الشيخ محمد الفاضل ... م س ص 60 .
- 44 - م . عمار : الشيخ محمد الفاضل ... م س ص 61 .
- Mongi Sayadi Al jamiyya Al Khalduniyya 1896 1958 M T E Tunis 1974 pp.45 : 179 178
- 46 - منجي صيادي : الجمعية الخلدونية (بالفرنسية) م س - ص 163 .



الأصالة والحدثة من المحاكاة إلى الاختلاف

بقلم : رمضان البرهومي

يبدو أن ما لا يحتمل أدنى درجة للشك أن التعامل الناجع مع السجل التاريخي بما هو رمز لترادف الأحداث وتعاقب الوقائع يتجاوز مجرد الترتيب التاريخي إلى الغوص في مفاصل ديناميتها والإشتغال النقدي على حركة الميكانيزم الدافعة لها باتجاه الروع التسالي الإشكالي ... وهو لا يخلو منه أي نسيج ثقافي نون اعتبار نسبته إلى موقع الفعل في غيره من الأبنية الثقافية المغايرة أو الانفعال بما يحيل إليه من سلسلة القيم ومعايير الرقي في أشمل دلالاته . وهو شأن الثقافة العربية إذ " أحدث إدخال النموذج الثقافي الغربي شرخاً في منظومة القيم التي تشترط إعادة إنتاج وحدة الجماعة واستمرارها واستقرارها (1) " وهو الأمر الذي يظهر من التساؤلات فيما يتصل بنمط الرابطة التي تبدو وثيقة أحياناً وهشة أحياناً أخرى ، بما يحمل على ما وكى من العهد السحيق أو ما ينسب من الإضافات النوعية المستحدثة بالمبتكرات التقنية لنطاقات ثقافية غريبة في التداول الحضاري المقارن مع أن التوقف عند ملامح هذا التراوح الثقافي بين حدي ماضي الذات - وحاضر الآخر بمجاز معين ، نون السعي بجرأة إلى تفكيك الأبنية القيمية والنظرية سواء ما انتسب منها للعجالات القرآنية أو ما يمثل منها علامة دالة على التحديث ، هو المانع من إمتلاك شروط المجاوزة في سياقها الإيجابي بما يفترضه من انخراط في دائرة الإبداع وقدرة على تخطي التعامل التأملي المثقل بالترجسية المستندة إلى الإغراق في الأطراء على السلف وازدراء ما لا يخفى من مظاهر التحديث الفعلي من جهة هؤلاء الذين ينكرون أن الروايات التي نلقاها لا تعدو سوى كونها أخبار " والخبر حسب التعريف المعتمد في كل العلوم هو القول الذي يدخله الصدق والكذب " (2) وذلك من غير انعاء أو تحامل لأن الوقوع في احدهما وأد جملة من التناولات المنقسمة على نفسها إلى مجرد مساحات سجالية يحكمها اتقان التراسق بما يحكم على معاني الاغتراب أو الاستلاب ومثل هذا الاعتبار ساد النظر فيما يتصل بالجنود والامتداد على أساس الاعتراف الصريح أو الضمني بالتباعد بينهما وتشظت تقريريات - شجرة الزمن وغلب الفصل بين موروثات الماضي ومنجزات الحاضر وهو ما ينفي ناموس الترابط العضوي بينهما بإطلاق انثربولوجي " فالحاضر لا يستساغ ولا تدرك جدوى ثرواته المعرفية والتقنية نون الاقرار بوجود رحم تاريخي أفرزه وقد تداخلت في بنائه عوامل عديدة نظير التهويمات الأسطورية والمجازات الميتافيزيقية أو الدينية فالحاضر بهذا المعنى لم يمتلك شرائط السبق الفلسفي والعلمي من الخواء .

فلا مجال إذن للاختيار بين الأنا والآخر " بين الماضي والمستقبل بين الحضارة والذاتية، بين الثقافة العربية ومعطيات العصر ، إذ لا يمكن لهذا الاختيار إلا أن يعني انتقاص الواقع وبتره

وتشويهه وهو انعكاس لموقف سلبي من الذات والعالم أيضا^(١) وهو ما يفضي إلى سكون الذات وتفجيرها من القدرة على التواصل مع المعيار الديني والثقافي من جهة وامتلاك ملامح أو سمات تضمن لكل ثقافة مقومات هوية لا تنمي مقتضيات التغير والاختلاف بما لا يلغي التفاعل والحوار بين الثقافات في ضوء الاقرار بخصوصياتها اللغوية والاعتقادية والقيمية .

غير أن هذا النمط من الترابط بين مختلف مساحات التمثل الثقافي (٣) لا يتحقق دون الاقرار بامتداد كل ثقافة في الماضي وضرورة قابليتها للإفادة والاستفادة معاً يضاف في النطاق الإنساني عامة من غير اكتفاء أي مجتمع بوجود الاعتداء بما نسب إليه من منجزات موروثة وذاك هو أبرز ما يشكل الدافع إلى تجاوز مرحلة الاستغاثة برصيد الماضي والإعتراف بكونه سلسلة من المبتكرات العلمية والإبداعات الأدبية والفنية على ذمة الأجيال التي ولّى عهدها .

في هذا المستوى نثار على هامش تفاعل المجتمعات مع تاريخها مباحث نظرية لها أثرها المبين في سلمها القيمي وسلوكاتها اليومية . ولا داعي لإغفال أن أبرز مبحث يشغل المفكرين في كل المراحل التي شهدت فيها البشرية تحولات اجتماعية مقترن بدورها بتأسيس إبستيمي مبني على كشوفات علمية بالتاريخ على نحو إشارة " ابن خلدون " في ظاهره إخبار وفي باطنه نظر وتحقيق على أن التدرج نحو التناول النقدي للموروثات التاريخية ومجاوزة طور إحصائها إلى الحفر فيما تبدو على درجة من الأهمية في مبحث ما حمل على الفكر العربي الحديث على ثنائيات ساد الجدول بين المفكرين في إحالاتها الدلالية والتفصيل بين مفاهيمها بقية استكشاف أفضل المسالك للمصالحة بين الماضي والحاضر .

وليس من المهم الوقوف على الأحكام التقويمية لهذه المسجلات المصطلحية نظير : التراث والحداث / الأصالة والمعاصرة / القديم والحديث / التقدم والتخلف .

لأن الإكتفاء بالإشارة إلى أن ابن خلدون مثلاً مؤسس المقولات المحمولة على المدارس السوسيولوجية الحديثة ومن هنا كان ذلك الخطأ المنهجي الذي انساق إلى الوقوع فيه رغم التحذير منه ، غير قليل من المعجيين " بابتن خلدون " ويعني به النظر بعين الحاضر والانطلاق من الفكر المعاصر . فيما ورد في المقدمة من آراء ونظريات في الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

في حين أن " الفكر الاجتماعي مرتبط يوماً بالعصر الذي ظهر فيه ويمشغل أهله وأنه بالتالي يفقد هويته الحقيقية ودلالته الصحيحة إذا ما حاولنا فهمه على ضوء عصر آخر (4) . وليس من معنى لذلك سوى ضرورة مراجعة دلالة الأصالة بما ترمز إليه من الأصول المكونة لبنية وعينا بالماضي أي أنه بقدر ما نزع أن لمجتمعنا معرفته التاريخية والعصرية فإننا مفتقرين إلى قراءة نقدية واضحة لهذا التاريخ " وعلى ذلك فإن التاريخ تحول إلى عامل مجمد لدفق الحركة باتجاه الرقي والمحافظة على شروط الانخراط في تسارع السبق الحضاري لأن الأصالة في عمق دلالتها إقراراً بجملة من التناقضات المتولدة بدورها عن تعدد مكونات الثقافة العربية الإسلامية وذلك ما يثبت ثراء الهوية التاريخية إذ أنه من غير النجاعة التاريخية لمجتمع الأصالة والمعاصرة لما أفاقت عليه المجتمعات الحديثة من تحولات معرفية واجتماعية أفضت إلى تصنيف المجتمعات البشرية إلى غالب ومغلوب،إو قائد وتابع،لأن هذه المباحث الثقافية غير مقتصرة على دائرة زمنية بذاتها .

فكل مجتمع يشهد خلال مراحل تطوره حالات من التماسك والرقى الذي يؤهله إلى أن يكون في موضع النموذج بالنسبة إلى غيره من المجتمعات المعاصرة له ، وأحياناً أخرى يقتصر لشروط المعاصرة ويستحيل بذلك إلى مجتمع تابع ومقلد لقيم وتمثيلات المجتمعات " النموذج " . وهذا الحال لا يمثل خصيصة الثقافة العربية الحديثة وهو ما لا يبرهن على دقة التصورات التي تزور لمرحلة التراجع بحملة " نابليون بونابرت " على مصر وتتخذ من تجربة " محمد علي " نموذجاً لمحاولة امتلاك شروط التحديث لأن ذلك الفهم يلغي كل المحاولات التي سبقت القرن 19 م وهو الموقف الذي يمثل قريناً للرأي الذي أوقف نشأة الثقافة العربية على عهد التدوين " . ولم يكن من الممكن إذن أن يخرج الإجتهد عن الإطار الذي يفرضه هذا النمط فالإجتهد هو دوماً إجتهد في الواقع والنوازل المستجدة ، ولم يكن ما كان يستجد من أمور في أي مجال من مجالات الحياة يدخل في أي تعارض مع نمط الحياة السائد ، لنقل باختصار أن عصر التدوين ذاك هو مهد المرجعية التراثية في فكرنا المعاصر ... (5) فالتمسك بالحدثة في ضوء الثورات العلمية الحديثة فحسب هو تجذير لفكرة القطعية بين مختلف حلقات التاريخ البشري من جهة ، وتحويل التاريخ إلى مجرد فضاء يحتوي على حلول سحرية لما يستحدث من القضايا في زمننا فيفقد نسبته بحكم كونه نطاقاً للإبداع الإنساني بصرف النظر عن حدود اللون واللغة وفواصل المكان والزمان من جهة أخرى ...

وهذا ما يبرر حدة المساجلات بين المتصرين للتحديث في شروطه الشكلية دون النظر في مقوماته النظرية أو أسسه القيمية والمحافظين على تمثل الموروث في الحاضر من غير قدرة على امتلاك مقتضيات الوعي الذاتي " وهي الخطوة الأولى التي تخلق الخروج من التدمير الذاتي الناجم عن الانقياد الأعمى للواقع والانفعال به إلى الحل الذاتي القائم على رؤية حقيقة التناقض والقبول به لتخطيه ... (6) اذلك ما يثبت الإقرار بتسببية اليقين في نطاق التراثي والخروج به من دائرة الإطلاق أو صلاحيته لكل الأزمنة ، مع أن هذا التعديل في علاقتنا بماضينا يمكننا من تقويم دلالة " الأصالة " ومجاوزة ما ساد من اعتقاد بين التراثيين من انطواء على الموروث من غير حصص نقدية وعليه فإنه " ليس غريباً والحالة هذه أن يكون التخييل الإجتماعي لأبناء هذه المجتمعات أن يتغذى من تلك التصورات الأسطورية أو الخرافية الموروثة عن الماضي ومن اليقينات المثالية التي تحدث بإطناب وإسهاب عن الشخصية أو الهوية وفيما هو يتغنى بكل ذلك بشكل استلابي ... » ويصبح من الصعب ادخال هذه المجتمعات المفككة في نطاق الحدثة العالمية التي ما انفكت تصدع العقليات التقليدية حتى في الغرب ذاته ... » (7)

يبدو أنه من مقتضيات الرصانة المنهجية عدم ادعاء أي منشغل بنظير هذه المحاور الشائكة من المعارف الإنسانية إمتلاك القدرة " الملائكية " على القطع بالإحاطة التامة بالحدود الفاصلة بين ما ينتسب للماضي باعتباره علامة دالة على التفرد بمقومات هوية بذاتها ، وما نلاحق بواسطته من السلوك والقيم المتجددة يثبت نجاعة الحضور الثقافي في سياق التواصل بين الأجيال المتعاقبة للحضارات البشرية .

على أنه من الممكن في ضوء هذا الفهم الإنشائي التخلص من سلبيات التصورات الإنتقائية

القائمة على افتعال مساحات من الأوهام الفاصلة بين الكيانات الثقافية ، والأمر الذي أوقع المفكرين العرب والمسلمين في مازقية الإنفعال والاحتماء بالوروث لاقتناع أصحاب السابقات الثقافية والدينية الأخرى بجدوى مساهمتنا في دفع الحضارات السابقة . ولذلك انتبه بعض المفكرين إلى أن " الغلبة اليوم في إطار تصور التراث للمقالة التي تذهب إلى أن التراث حاضر اليوم وفاعل وأن الحضور والفعل الذين له مستمدان من استمرار الماضي في الحاضر ، استمرار الجوهر في تجلياته ، وأن الزمان ما هو إلا عنصر خارجي يشهد ويسجل لحظات لا كيفية فيها . أي أنه دور التاريخ بهذا المعنى مرور الزمان على ذات مستمرة صاحبة هوية تستتبع نفسها دورا بعد دور" (8)

ولا يظهر من هذا النمط من الإدراك لهذه الحركة بما هي ابداع إنساني متزمن في إحدى تجلياته الذهنية المجردة أو العلمية المتحوّلة بدورها إلى إضافات تقنية لا تتصف بالإطلاق . من هنا نخلص إلى أن الفهم السكوني لدلالة " الأصالة " والوقوف بها عند حدود محاكاة الموروثات دون إمتلاك شروط الوعي بما هو سلبي أو إيجابي وهي بدرجة أساسية من علامات الارتباك في التناسق بين شواغل المفكرين المتولد عن إلتباسات تاريخية في معنى الزمن إذ ساد تجريده من كلّ سمات الفعل البشري ، مع أنه لا إمكان لإدراج الزمن بمجرد إفتراضها من غير ارتباطها في تمثلاتنا النوعية حضورنا في أي حلقة من سلسلة الأزمنة والعصور .

أي أن لكلّ مجتمع توقيعه المميز له على خارطة الزمن ، وعلى ذلك فالسلف الذي أثبت بما ورثناه من مخطوطات ورسوم وأدوات وعجائب عمرانية لم يبتغوا على عهدهم إثبات شرعية الإستمرار والرفق لما يليهم من الأجيال ، وإن حدث هذا التوقع فهو من جهة التخيل ، والإحساس بالإضافة إلى الأجيال اللاحقة بالنسبة لهم أي أن سلفنا لم يتمكّنوا من بلوغ موضحة الريادة وتحقيق جملة إحتياجاتهم الحسية ورفقياتهم النوقية لما تأسس لديهم حسّ التوقع أو الإفتراض الذي تأسس عليه إتجاه فقهي بذاته وهو الفقه الإفتراضي أو ما يصطلح عليه في زمننا " بفقّه القضاء " ، وهو المساحة الإجتهدية التي يترك فيها للقاضي دعم فلسفة المشرّع في ضوه إختيار ما يؤسس العلاقة التكاملية بين مصالح المتقاضين وسير الصالح العام

ولا معنى لمثل هذه المقاربة سوى التأكيد على أن الهوية لا تستورد من دوائر الماضي ولا ترسم شروط كينونتها في حالة التباهي مع المعاصر زمنيا والمختلف في مستنداته القيمية والمعرفية أو كل ما يحمل على دلالة التمثل الديني " لأنّ المقدّس هو الحقيقي بامتياز لا شيء ممّا ينسب إلى دائرة الدنيوي يشترك في الوجود ، لأنّ الدنيوي لم يؤسس انطولوجيا بالأسطورة (9) . لكن يظلّ هذا الإفراغ لمركباتنا الحسية من الشحنة الأسطورية ولأيّ جهد من بعده الشعائري مجرد إقرار بتباين صور الحضور لطوقس المقدّس في المخيال الجماعي ، لأيّ مجتمع وفق نمط علاقته بتراثه . فالتوقّف عند هذا المستوى من المقارنة بين كيفيات تقاعنا مع ما سلف من زمن الحضارة العربية الإسلامية وتمثلات المجتمعات المقترنة في وعينا بموجات التحديث في مدهاء الإيجابي ... يسمح لنا باستخلاص يجعل هذه الرابطة بين حدي ثنائية الماضي والحاضر وهو ما يناقض صلة المجتمعات الأخرى القاندة في النطاق العلمي والحضاري عامّة . فهؤلاء يمارسون الحفر في دلالة الأركيولوجية لذلك إمتلكوا الجرأة لإثارة ما اعتبر من طائفة المسكوت عنه من

المباحث المحرجة في تناولاتهم التقييمية لسجلاتهم التاريخية فتجاوز التراث لديهم مجرد الوجه " الاستهلاكي " المتضمن الحلول الناجزة لكل ما يتحدث من مشاغل راهنة .
 إلا أن فريقاً من رواد الإصلاح خاصة ، قد أغرقوا عامة الناس في وهم الاعتقاد ، أن الغرب تعلم من كل ما يرمز للقيم الرأقية في دلائها الأخلاقية والواقع " أنه لا يستسيغ عقل ولا يستمره ضمير حي ، التخلي عن المثل العليا في الحياة الإنسانية ، التي تتعشعها النفس الإنسانية بفطرتها (10)

هذا التعامل الإنطباعي الذي يجاوز به أصحابه مجرد الإنفعال العاطفي ورد الفعل من خلال السعي إلى ابتداع مؤاذات تقترب بدورها إلى دعائم مقننة من جهة التعقل أو منطقية الإدراك ... إذ المهم في أفق هذه التصورات التمسك باعتبارنا أهل أول حضارة حققت للمجتمعات الأخرى تحولات نوعية في بنى تفكيرها ومسلّماتها الإعتقادية . وذلك بغية إثبات شروط الإستمرار من خارج دائرة " الذات أو " الأصالة " بمجرد إستساخ " التراث " .

هكذا أفضى تدفق الحس النقدي إلى أن " عقلنا العربي ما زال مكيلاً يارث التخلف ، لا يبدع الجديد لأنه منشغل بإعادة إنتاج التراث وإجتراره وللأسف ما زلنا نناقش قضايا ظن بعضنا أنها قد حسمت لصالح التقدم على الأقل منذ القرن الماضي (11) نظير دلالة " الأصالة " و" الحداثة " ذلك أنه من دلائل العمق السجالي الإكتفاء بمجرد الإحصاء الترقيمي لما تعنيه إحدى هاتين المفردتين من إحالات دلالية كثيفة ، فنحن بحاجة إلى الخروج من نطاق السجل البياني دون إنكار جنواه على نحو ما انتهى إليه : محمد عابد الجابري : وعدم توقيف مؤشرات الحداثة في سياقها الإيجابي على المستوى التقني إذ أن جوهر الخطأ في النظرية التحديثية السائدة وسبب الإخفاق إذن هو تصور مسألة التحديث وكأنها مسألة تقنية محضة (12) في غير حاجة إلى مثل أخلاقية أو مجازات أنطولوجية فتستحيل بذلك مقاييس : التخصر إلى اعتبارات آلية وميكانيكية فحسب ... ولا يخفى هنا أن كلاً من التصورين التراثي والحداثي يفضيان بهذه الصورة إلى مجرد محاكاة الماضي أو " الآخر " المعاصر في دلالته الثقافية " وباختصار نحن لا نبحث الفكرة في التقدير السلفي أو الحداثي بما يؤدي إليه من " إتباع " من خلال تحليل الواقع وذلك هو التوجيه العام وأساس كل نشاط عقلي وعلمي ولكن من خلال معيار عام وذاتي : أي أن نخضع الواقع الفكرة التي عثرنا عليها ونريد أن نفرضها عليه " (13)

وعليه ، نقصد الوعي العربي والإسلامي بين حدي " الذات " في ما ضوئتها القادة " الآخر " في حاضره الفاعل في مختلف مجالات الفكر ومراتب الممارسة في أفقها الكوني فتداعت المساءلات الحادة فيما يتصل بتحديد رؤيتنا لذواتنا والمفاير لنا قيمياً وثقافياً عامة .
 " في الوقت الذي تفتقد فيه الذات العربية الرأينة استقلالها لأنها تستمد تقاليدها وريود فعلها من مرجعيتين متنافستين ومتعارضتين وهما منفصلتان عن الذات العربية ... إحداهما تنتمي إلى الماضي العربي الإسلامي الجامد والثانية تنتمي إلى الحاضر والمستقبل الأوربي " (14)
 ولعل هذا الاعتبار التبيست معاني " الأصالة " وغلب الإعتقاد أنها مجرد تمسك بموروثات الماضي . واقتربت الحداثة بالسطح الظاهر من شكلياتها التقنية ، مما أدى إلى التراوح بين

التحديث والتقليد في نسبتها للماضي ، أو الحاضر بافراغ كل منهما من شروط انخراط السابقين في نطاق زمانهم الحضاري من جهة وانكار رموز " التراث " ومحتوياته بدعوى أنها غير مجدية في " زمن أبهر بالعلم وانتصاراته فأصبح عديد معاصرينا لا يكادون يقدسون سواء وتقلصت نظرتهم إلى الوجود إلى مجرد شائيات بسيطة للغاية : الروح والمادة ، التراث العربي الإسلامي الجامد في ثراء الماضي وحيوية الحضارة الغربية الصناعية المتجددة يوما بعد يوم الأصالة والتجديد ، التقليد والابتكار " (15)

فلم تتجاوز مفردة " الأصالة " في ضوء هذه الأزواج المفاهيمية ، مستوى التشبث بالماضي ، والسعي إلى الإستجداد بما يُحمل عليه من رؤى ، وتصورات علاجية لما يُستحدث من قيم لا تستوي في ذاتها ، بل تكتسب شروط فاعليتها وتجاريها على اعتبار اتصالها بالسياق الثقافي في عمومه ... وبصورة مختصرة هذه جملة النواحي التي قادت أهل النظر في مثل هذه الشواغل الثقافية إلى حمل " الأصالة " على متون وحواشي الموروث الفقهي والكلامي فحسب ، نون استشراف التحولات في مناهج المعرفة والمقارنة التي ينبغي أن تحقق استيعاب مقتضيات التنوع والانفتاح على المغاير الثقافي ، بما له من امكانات الاختلاف في دلالاته الإثرائية ومجاورة النسخ في اتصالها بالموروث أو المعاصر في الآن ذاته .

الهوامش:

- 1 - برهان غليون : مجتمع النخبة ، دار البراق للنشر ، تونس ، 1989 - ص 97 .
- 2 - عزيز العظمة : الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ص 17 .
- 3 - برهان غليون : الوعي الذاتي ، دار البراق للنشر ، تونس 1989 - ص 102 .
- 4 - محمد عابد الجابري : المسيحية والنزعة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ص 8 .
- 5 - محمد عابد الجابري : وجهة نظر ، المركز الثقافي ، العربية ، بيروت 1992 ، ص 215 .
- 6 - برهان غليون : مجتمع النخبة ص 112
- 7 - محمد أركوت : أين هو الفكر الإسلامي الحاضر ، ترجمة وتحقيق : هاشم صالح ، دار الساقي للنشر ، بيروت 1993 ص 154 .
- 8 - عزيز العظمة : التراث بين السلطات والتأريخ ، مجلة تلك دراسات عربية ، العدد (8) السنة التاسعة عشرة ، 1983 ص 61 .
- 9 - مرسيا إلياد : المقدس والدنيوي ، الطقوس ، والأسطورة ، ترجمة : نهاد خياطة ، المركز العربي للطباعة والنشر ، دمشق 1987 ، ص 91
- 10 - فتحي التريتي : دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر ، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق 1988 - ج 2 ص 84 .
- 11 - طيف البوني : رؤية تاريخية لقضايا مستقبلية دار الرياح الأربع ، تونس 1987 ص 14 .
- 12 - برهان غليون : حوار غريغوري مرش ، تقديم : محمد سبيلا مجلة الوحدة ، الستة (3) العدد : 25 - 1988 - ص 124 .
- 13 - برهان غليون : مجتمع النخبة ، ص 128 .
- 14 - محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 1986 ص 584 .
- 15 - عبد الوهاب بوحدية : فصول ، عن المجتمع والدين ، الدار التونسية للنشر 1992 ، ص 193 .

من الوعي إلى اللاوعي:

"هشاشة الإنسان"

بقلم : محمود البش

لقد كانت مسألة الإنسان ولا تزال المحور المركزي للخطاب الفلسفي الحديث منذ إعلان ديكارت الشهير : يجب أن نجعل من الإنسان سيد الطبيعة ومالكا لها إلا أن ديكارت أعلن بالتوازي حينئذ أن العقل أعدل الأشياء توزعاً بين الناس " جاعلاً في العقل علامة الانتقال من الجنس إلى النوع ولم يخطر ببال أحد حينها ، أن ديكارت كان يضع أساس إشكال آثار الحوار بين العالم والفيلسوف بعدما اكتشفت لعلوم الإنسانية كما لخص فوكو أن الإنسان ليس سوى ملقى لسياقات الرغبة والإنتاج والخطاب وعلى أرضية الأهانات الثلاث التي تحدث عنها فرويد وما اتخذته من بعد فلسفي بل وثقافي أيضا ما دامت الثقافة أو ثقافة الوعي الإطار الذي تنظم فيه كل آليات الثقافة وبنائها رغم الشروخ التي أحدثتها مقالات حنود الوعي منذ شوبنهاور ونيتشة مروراً بماركس ووصولا لفرويد .

إن الالتقاء بماركس ونيتشة وفرويد كما تحدث بول ريكور يمثل بحق رجة هائلة لكل من تكون في الظاهراتية والعقلانية إذ درج الأمر كإسكيا على اعتبار الوعي المرجع الأوحده للكينونة متخذين من كوجيتو ديكارت مدخلا حول الذاتية ، ذاتية تتحدث بما هي ماهية مفكرة أولا وقبل كل شيء . وعد الخطاب أيضا تغير منفصل عن الذات ووعيها ، فهو مكتوب برموز الوعي ، فالأنا سيد في بيته يمتلك تصورات وأفكاره ، وما ألفه إلا تجسيد لهذا الأنا وتعبير عنه لذلك وقع ربط كل لغة بإمكانات الأنا كوعي بالإنية والعالم والآخر ، وعليه فإن وضع علاقة بين الخطاب والوعي قد أثار لبسا أو كيا مثل اللبس الذي أثارته علاقة الوعي بالوعي والتي عبر عنها فرويد بالإهانة الثالثة بعد الإهانتين الكوسمولوجية مع كوبرنيك والبيولوجية مع داروين .

إن الإهانة التحليلية قد قطعت مع الفرضية القائلة بأن كل ما هو نفسي واعي وكل ما هو واعي نفسي ، بحيث لم يعد الوعي المبدأ المفسر لخطاب الذات وممارساتها بل حل محله اللاوعي ولعل ذلك يعني أول الأمر أن الوعي قد أزعج عن مكانته في مجال الذات ولم يعد له أي دور رغم أن فرويد قد أكد « أن الوعي ما يزال النور الوحيد الذي يسطع لنا ويهدينا في ظلمات الحياة النفسية »

فكيف تتحدث هذه العلاقة بين مجال الوعي والوعي على ضوء الإشكالية التي أثارها التحاليل الماركسية والتنشوية والفرويدية ؟

إن الوعي عند ماركس يتخذ طابع القوى الإنتاجية الاقتصادية والطبيعية التي تمارس تحديدا لا مباشرا وفاعلا للوعي الاجتماعي : « إذ ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم بل وجودهم الاجتماعي المادي هو الذي يحدد وعيهم » . إن هذه الأطروحة من مقدمة نقد الاقتصاد السياسي

تثير الإهتمام بدور القوى اللاواعية التي تحتل البنية التحتية السابقة لكل وعي وتحدده تحديدا ميكانيكياً في بعض الأحيان . ولم يقف الأمر عند هذا الحد لدى ماركس فالتحول الإقتصادي الإجتماعي التاريخي يتحدد هو الآخر بالشروط الموضوعية المستقلة استقلالاً جوهرياً عن الذات وعن وعيها المشروط بهذه الشروط بحيث تتحدث الأطروحة الماركسية عن الحتمية التاريخية التي تعبر عن هذه الشروط الموضوعية المستقلة استقلالاً جوهرياً عن الوعي والإرادة بلغة شبيهة باللغة التي تحدث بها لابلان عن الحتمية الطبيعية بحيث نستطيع أن نستخلص مع فوكو أن ماركس يتحدث عن بنىوية تقصي الذات والوعي من ألياتها وتعددها نتيجة لا سببها واضعاً أطروحة الوعي خارج منطقها الهيكلية متخلّصاً إلى معادلة أن الوعي لا يحرك التاريخ ما دام محركه هو شروط حياة الناس المادية والقوى والبنى الإنتاجية .

فالإنسان عند ماركس لم يتمتع بالوعي لأنه كذلك بل هو جزء من عالم الطبيعة التي وضعت فيه خصائص الذكاء الغريزي والذي على أساسه تبلورت لحظة الوعي منذ بدأ الناس ينتجون شروط حياتهم ، فالعمل وعلاقات الإنتاج هي الشروط القبلية المحددة لكل وعي ، ألا يبدو هنا فعلاً أن جدل هيجل يمشي على رأسه ؟ وكان على ماركس أن يضع مقابله مقالته المادية الجدلية والتاريخية في النظر إلى الوعي كإنتاج إجتماعي مادي ، يقول ماركس : « ويتطور هذا الوعي القطيعي أو القبلي وينمو بنمو الإنتاجية والحاجات وما يستتبع ذلك »

أما نيتشه فقد أثار مسألة الحدود الجنياولوجية للوعي مكتشفاً الدور الذي مارسه الميتافيزيقيا في تزييف جوهر الكينونة حينما عزاتها عن أساسها الفعلي وفصلت بينها وبين حاملها الفيزيائي وراكمت من المفاهيم الميتافيزيقية حول (الوعي في ذات) و (الإدراك المتعالي) و (العقل الخالص) واشتقت من هذه المفاهيم مبنية كاملة تتحدث عن تأسيس ميتافيزيقي للذاتية (ديكار) وعن أساس ميتافيزيقي للقيم (كانت) بل والأخطر من ذلك أنها أعطت الإرادة مضموناً ميتافيزيقياً (الجوهري المفكر لدى ديكار) . كل ذلك جعل نيتشه يكتشف عند شوينهاور أساساً حقيقياً لكينونة متعينة وإرادة قوية لا تتكلم من الوعي بل من الجسد ، يقول نيتشه في (هكذا تحدث زاردشت) : « في جسدك يا أخي يخفي سيد مجهول يدلك على الطريق اسمع الهو »

إن الفلسفة النسقية والأخلاق المسيحية يمثلان حسب نيتشه المؤامرة الكبرى التي زُيّت الحياة ومعناها . فكان الفكر الغربي قد استلب كينونة الإنسان وأفضى إلى إغترابه حينما عرف جوهراً بالروح العاقلة ، يقول نيتشه « إن العقل بما هو وسيلة الفرد إلى البقاء يطوّر قواه الرئيسية عبر الإخفاء » . هكذا يكشف نيتشه أن حقيقة الإنسان تتحدد بالقوى الغريزية المحددة لنظام العقل .

لقد جاء فرويد إلى ساحة علم النفس والطب النفسي محمولاً على هذه المفهومية التي مهد لها شوينهاور وماركس ونيتشه الطريق معترفاً بأن مفهوم اللاوعي قد حام حوله الفلاسفة كثيراً دون استطاعة تبريره علمياً حتى جاءت اكتشافات التحليل النفسي لتقدم البراهين على ذلك وأثبتت فرضية اللاوعي أن الوعي بمفرده وإن كان دوره الفعلي ضرورياً إلا أنه غير كاف في تسليط الضوء على حقيقة السلوك في جزء واسع منه .

البقية ص : 30

فرويد والأدب

بقلم : محمود بنقاسم

إنَّ اهتمام التحليل النفسي بالفن يجعلنا نحاول معرفة العلاقة الكامنة بينهما . وبالتالي إمكانية دراسة وجهة نظر فرويد كمحلل نفسي من الأدب ومن الشخصيات الأدبية لذلك سنحاول تسليط الضوء على دراسة قام بها فرويد حول كتاب " فلهم جانتسن " الروائي الألماني ، الصادرة سنة 1903 والمعنونة باسم « غراديفا » . والتي حاول خلالها تبين العلاقة الموجودة بين بطل القصة وأحلامه من جهة وحياة هذا الكاتب وطفولته من جهة أخرى (1) بحيث يهتم فرويد في هذه الدراسة بأدق التفاصيل التي تخص سواء بطل القصة أو حياة الكاتب النفسية وطفولته . ذلك أن الأديب حسب فرويد ينشئ عالماً خيالياً ليتشبَّث بمعاله فيكون بالتالي جائزة مغرية يستطيع بواسطتها تجاوز سلبية الواقع وقماتمه .

وقد استطاع فرويد أن يجعل من الأحلام التي يعزوها الروائيون إلى أبطالهم الخياليين موضوعاً لهذه الدراسة وذلك بعد أن حاول في أبحاثه حل ألغاز الأحلام الفردية فهو يقارب بين أحلام البقطة أي أحلام الأبطال والأحلام العادية (3) إذ أنها ليست غريبة عن الحالم أي أنها تتصل بأعماق حياته النفسية ، ثم أنها كذلك تبدو كالوسيط بين الواقع الذي لا يرضي والذي قد يمنع الرغبة وبين عالم الخيال الذي يحاول إرضاء هذه الرغبات والخروج من وضع الحرمان الذي عليه الحالم إلى وضع يمثل تلبية خيالية لرغباته .

أما التقارب الأهم والأخير فيكون متمثلاً خاصة في أن لكلا النمطين من الأحلام محتوى ظاهر ومحتوى كامن .

المحتوى الظاهر هو عبارة عن الحلم كما يبدو لنا وكما نستحضره في غموضه وضبابيته إلى حد أننا نجد غالباً بعض العناء في تذكره وروايته . والمحتوى الكامن هو ما يستطيع المحلل النفسي فهمه من خلال ربطه لعلاقات تكون موجودة بين الفرائز المكبوتة في اللاشعور من جهة وتصدى الواقع لهذه الرغبات من جهة أخرى ، لذلك تعتبر الأحلام في محتواها الظاهر بديلاً محرماً لهذه الرغبات الكامنة في أعماق جهازنا النفسي .

فالأحلام تستعمل رموزاً . وتستدعي تلك الرموز مرجعيات توضّح المعنى ، يكتشف المحلل النفسي عندها الحقيقة إذ أنه على غرار الألسني ، يحاول ربط هذه المفاهيم وإيجاد العلاقات بينها حتى يصل إلى تلك الحقيقة أي حقيقة إعلاء الرغبات المكبوتة في اللاشعور وتحويلها إلى إبداعات فنية مقبولة من طرف المجتمع ، هكذا يكون تأويل الأحلام الطريقة الملكية التي نستطيع بواسطتها معرفة اللاشعور (4) فإذا كان الحلم إنتاجاً ذاتياً نرجسياً ألا يمكن أن نعتبر الإنتاج الفني أحلاماً أكثر عمقا وجدة ؟ (5)

إن النّس الأدبي هو في الحقيقة غشاماً يحاول ظاهرياً طمس المحتوى الكامن ، « المسكوت

عنه « على حد تعبير ميشال فوكو ، لذلك تكون دراسة هذا النص متمثلة خاصة في قضيح الصراعات التي كانت سبباً في إنتاجه ، وبالتالي عدم افعال أدق التفاصيل التي قد تحمل في طياتها معاني هامة تساعد الباحث على معرفة دقيقة بموضوع بحثه .

وهذا ما قد استطاع القيام به خلال دراسته للإنتاج الأدبي فاهتمامه بهذا الإنتاج جعله يرجع النص إلى معناه الكامن ويضع الافتراضات ويقوم بمقاربات كثيرة سواء بين الإبداع والأحلام من جهة أو بين الأحلام والاستيهامات من جهة أخرى وذلك عبر طريقة تأويلية تحليلية تمر من البحث عن أوجه التشابه بين حياة الفنان النفسية وإنتاجاته ، إلى التعمق أكثر فأكثر في دراسة هذا التشابه (6)، ويبرز هذا جلياً في تحليل فرويد لقصة « فلهم جانتسن » La GradiVa Wilhem Jensen وخاصة في اهتمامه برغبات البطل ومواقفه .

فنوربرت هانولد Norbert Hanold بطل القصة هو باحث في علم الآثار يجد أثناء بحثه في مجموعة من الآثار القديمة تمثالاً لفتاة تتأهب للمشي ، حيث تغادر أحد ساقبها الأرض في حين تبقى الساق الأخرى في وضع يوحي للمشاهد بأن الفتاة تسرع في مشيتها بكل حزم وثقة في النفس .

لذلك يسترعي تمثال هذه الفتاة وخاصة وضع ساقبها اهتمام هذا الشاب الباحث ، بالرغم أنه لا يجد في هذا الأثر الفني القديم ما يمكن إستغلاله من الناحية العلمية ويبدأ في تذكر ما يمكن أن يوقظ فيه من ذكريات ، فحبّه لهذا الأثر لم يكن وليد الصدفة بقدر ما كان وليد رغبات هذا الشاب المكبوت ، فقد تذكر ما كان يكتنه من حب جارف لصديقة طفولته « زويه » Zoë الذي ضحى به من أجل الاهتمام الكلي بدراسته ، ولكنه لم ينته ولم يمت بل كبت في اللاشعور ويحاول الولوج كلما وجد الفرصة سانحة لذلك ويصل الهذيان ببطل هذه القصة إلى السفر إلى مدينة بومباي Pompei الإيطالية ، مصدر التمثال القديم ، عله يجد ما يمكن أن يضيف إلى معرفته لهذا التمثال ، ولكنه في الأثناء يتقابل صدفة مع Zoë زويه حيث كانت تقضي عطلتها هناك ، فيخيل إليه أنه قد التقى مجدداً بفتاة التمثال

لكن « زويه » تشعر عندها بما وصل إليه « نوربارت » من إستيهامات مخيفة وهذيان قد يصل به إلى الهستيريا ، لذلك تحاول « زويه » علاجه ، وذلك بتمكينه من تذكر ماضيه الطفولي الذي كبت في أعماق حياته النفسية .

لذلك فإن دور الفتاة « زويه » في هذه القصة يشبه دور المحلل النفسي الذي يطهر المريض من عقدة النفسية (7) إذ أنها حاولت الربط بين الحالة المرضية « لنوربرت » وما يعانيه من تبعات أحلام اليقظة من جهة وبين رغباته المكبوتة من جهة أخرى .

إن وقائع هذه القصة أوحى لفرويد إمكانية القيام بمقاربة يحاول خلالها الربط بين رغبات الفنان من جهة وأحلام اليقظة التي نكروها البطل من جهة أخرى فالتص الأدبي بالنسبة له يخفي الحقيقة الخطرة ، أي حقيقة المجتمع ، والحضارة والثقافة ، هذه المجالات التي يعتبر فرويد أنها تقعم الفرائز ولا تسمح ببروزها .

هكذا يبدو الإبداع الأدبي نسيجا غريبا من الوقائع يجعل اللامرئي ظاهرا ، ولكن هذا الظهور يكون سطحيا ومحتشعا وهنا يتدخل المحلل النفسي بالتحليل والتأويل ، فيتمكن من تعرية ما يريد إخفاؤه النص وفضح الصراعات التي تكتسح حياة الفنان النفسية ، فعلى غرار تأويله للأحلام ، يؤكد فرويد أن استيهامات بطل القصة هي في الأصل تواصل لرغبات الفنان المكبوتة ، فالفنان وصل إلى درجة الوعي بهذه الرغبات لذلك يحاول التخلص منها ولكن بطريقة ترضي المجتمع وتجعل من القارئ مشاركا في عملية التطهير النفسي التي يريدها وذلك بواسطة قدرته على إعلاء رغباته المكبوتة وتحويلها إلى أداة إيجابية لفهم الواقع .

إلا أن طريقة التحليل النفسي للإنتاج الأدبي ليست الطريقة الوحيدة التي نستطيع بواسطتها تفسير بواعث الإبداع وأسبابه ، إذ أن للحالة الاجتماعية والطبقية دورا في هذه العملية المعقدة ، وتبقى إمكانية التركيز على جانب الحرمان العاطفي لتفسير بواعث الإنتاج الأدبي هامشا محدودا .

* المراجع :

- 1 - سيفغوند فرويد « الهذيان والأحلام في الفن » ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت 1978 .
- 2 - Sigmund Freud << le rêve et son interpretation >> Gallimard 1969
- 3 - نعتي بها أحلام النوم
- 4 - المصدر نفسه ص 517
- 5 - Alain Roger << ART et psychanalyse in l'Univers philosophique PVF 1991
- 6 - Nicos Nicolaidis << créativité et / ou symptome >> ed clancier 1982 Guenau paris
- 7 - الطريقة التطهيرية تترجم بـ Catharsis وهي طريقة تحاول الوصول إلى حلّ للآزمات العاطفية التي يعانيها المريض النفسي .

إطالة على التصوف

بقلم : حسن غزير

التصوف ظاهرة دينية إجتماعية لا يكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات ، جذورها ضاربة في أعماق التاريخ ..
فما المقصود بالتصوف ؟ ماهي دعائم التجربة التصوفية ؟ أي المناهج تعتمد في البحث ؟ ...
تلك مسائل نحاول معالجتها من خلال هذا العرض .

1 - مفهوم التصوف :

لمادة « التصوف » في التراث العربي الإسلامي اشتقاقات متعددة ، فقليل إنَّها مشتقة من الصوف (لباس الصوفية حيث كانت عاداتهم أن يلبسوا جبة أو مدرعة من الصوف فاسطلقوا على الزاهد منهم إسم التصوف أو المسوح نسبة إلى المسح أي اللباس من الشعر) .
ويرى البعض أنَّا اشتقت من أهل الصفة من فقراء المسلمين الذين بنى لهم الرسول صفة خارج مسجد المدينة ليبيتوا فيها ، ويعتقد الآخرون « أنَّها مستمدة من الصفاء بمعنى أن الصوفي قد صفى قلبه لذكر الله وهو ما عبّر عنه أبو الفتح البستي بقوله :

« تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

قدما وظنوه مشتقا من الصوف

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولست أنحل هذا الإسم غير فتى

صفا فصوفي حتَّى لُقِّب الصوفي

ومنهم من جعل الصوفية نسبة إلى رجل جاهلي وهبته أمه إلى الكعبة وكان يلقب بـ «صوفة»
وبعضهم يرى أنَّ الصوفية مشتقة من « الصوفانة » وهي ضرب من البقل كناية عن التواضع (1) ، ويرجح بعض المحدثين أنَّ الصوفية مستعارة من الكلمة اليونانية «
فيلوصوف» .

« بمعنى الحكمة الالهية ، فيكون بهذا التصوف مرادفا لمعنى الحكمة العقلية أي الفلسفة »
لأنَّ الصوفي يطلب الحكمة عن طريق الدين وريما كانت المقاربة في اللفظ أقوى سند يعتمد عليه القائلون إلى استعارته من الفلسفة اليونانية « (2) ولكلمة التصوف في التراث المسيحي دلالات أخرى لا تخرج عن معنى الخفاء والسرية والتطلع إلى البواطن والتعمق في الأسرار الغيبية وراء الظواهر . فهل يتماهى هذا المفهوم وحقيقة التصوف في الفكر العربي الإسلامي ؟
التصوف تجربة ذاتية ومعرفة نوقية قلبية تطلب كشف الأسرار الإنسانية « وتروم أن تحدث نوعا من الوحدة بين الذات المتحررة من قيود المادة والكون وبين التوازن

ترو إلى معرفة خفايا السريرة الإنسانية خاصة الوجود عامة ، وهذه التجربة السلوكية جماعة الإستعدادات العقلية والخلقية التي يتبعها العابد للتطلع إلى المطلق إلى الوجود اللانهائي (الله) وفق منهج سلوكي قائم على المجاهدة والزهد والوجود (Extase) ومحاسبة النفس والتحلي بالفضائل وغير ذلك من ضروب العبادات ... ولعل هذا ما أشار إليه الجرجاني في التعريفات «التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فبرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال» (4)

التاريخية التصوف

يرجع كثير من الباحثين ظاهرة التصوف إلى المسيحية والأفلاطونية الحديثة أو الفيدانتا الهندية أو البوذية أو الديانات السرية كالصبائنة والهرمسية أو القبالة اليهودية ... حيث كان أربابها يجنحون إلى الزهد وقمع شهوات الجسد والرهينة ... ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية واتصال مراكز الفكر فيها بالشعوب الأرامية من مسيحيين وهنود وغيرهم ... ومع توافد غير العرب من شعوب الأقطار المفتوحة على الإسلام نمت الحركة الصوفية في شبه الجزيرة العربية و « اتخذت الأساس القرآني لدعوتها حتى تلقى الأنصار كسائر الدعوات الأخرى وسلكت حياة التقشف والزهد وإنكار الذات وليس أصحابها عباات من الصوف الأبيض كان شعار التوبة والآنية إلى الله عند رهبان المسيحية (5) وقد شهدت القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة تطورا تدريجيا من الزهد والتقشف ومخافة الله ومجاهدة النفس (كالأمر مع الحسن البصري) إلى القول بالحب الإلهي والطاعة المجردة على الرغبة والرهبة (رابطة العنوية) إلى نظرية معقدة عن العشق والغناء والحوّل (الجنيد والحلاج) ، لكن الأمر الملفت للنظر أن شيوخ الصوفية في أواخر القرن الثالث للهجرة مالوا إلى المبالغة في الإستخفاف بالشرعية واعتقدوا أن أوليائهم أعلى شأنًا من النبيين وصلتهم بربهم صلة مباشرة وقد يتحدثون به ويفنون فيه ... وهم يطنون تفرق المعرفة والحكمة الإلهية على علم العلماء ، وأنه لا علم كال تفكر والرجل متى رسخ في العلم رفعت عنه الزوايا الصالحة ... (6) ، «حتى ذهب إلى ظن المريدين أنهم ماداموا تحت رعاية رئيس من رؤساء تلك الطرق فإن هذا الأخير يدخلهم مباشرة إلى الجنة لأنه حبيب الله بل إنهم يعتقدون إن صاحب الزاوية أو الطريقة يعلم الغيب» (7) .

أما في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، فقد شهدت الحركة الصوفية تراجعًا وفترًا إثر المحاكمات والصلب (الحلاج و السهروردي) (8) والتزمت الحدر في تعاليمها وأقامت مصالحة بينها وبين الشريعة ولذا عملت على صياغة قواعد الفكر الصوفي تعظمت في مؤلفات متعددة مثل كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي وكتاب «اللمع» لأبي نصر الطوسي وكتاب «التعرف لمذهب التصوف» لأبي بكر الكلاباني ، والرسالة للقيصري ، وكتاب كشف المحجوب للهجويري ...

ومع بدايات القرن الخامس للهجرة ظهرت الطرق الصوفية وصارت كل جماعة تتبّع شيخًا من شيوخ الصوفية وتعارض طقوسها وشعائرها بشكل منظم بدار التكية أو الزاوية أو الرّباط ، بل

« وأخذت كل طريقة سلسلة من الإسناد ترجع نسبها الروحي إلى واحد من صحابة الرسول قد
اشتهر بالزهد » (9) ، والطريقة هي مجموعة القواعد التي يرسمها الشيخ للمريد ، ولها رباط
يضم الشيوخ أو الشبان ، وشيخ الطريقة هو قطبها ووليہ النقباء فالأبرار فالأبدال ... ومن بين
هذه الطرق : الطريقة القادرية (نسبة إلى عبد اللقادر الجيلاني) ، والطريقة التيجانية والطريقة
الرفاعية (10) والطريقة المولوية (نسبة إلى جلال الدين الرومي) (11)

3 . فلسفة التصوف :

تتقعد فلسفة التصوف على عدة مبادئ أهمها :

* الحب الإلهي :

ينبني إيمان المتصوف على الحب الإلهي لا طمعا ولا خوفا ، ومثل الصوفي « مثل الفرد
المثالي في بيئة إجتماعية » (12) ، وفكرة الحب الإلهي حاضرة في فكر المتصوفة ، فانظر إلى
قول ابن العربي :

« أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه فالحب ديني وإيماني »

أو لقول ذي النون :

« وأقضي وما ماتت إليك صبايتي

ولا قضيت من صدق حبك أو طاري »

ومن هذه الصلة الإلهية تقول رابعة العنوية :

أحبك حين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

وأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

وما الحمد في ذا وفي ذاك لي ولكن لك الحسد في ذا وذاكا

* الزهد :

لم يكن الزهد سمة أساسية ينفرد بها التاريخ الإسلامي (13) بل إنّه ظاهرة لم يخل منها
أي مجتمع من المجتمعات ، وهو الإعراض عن شهوات الدنيا وزخرفها والإنقطاع إلى عبادة الله
وتعهد النفس بالفصائل والترقي في منهج العبودية ، ولتحقيق هذه الدرجة « يمرّ الصوفي بثلاث
مراحل أولها الصبر وهو جوهر عمل الزاهد وثانيها المجاهدة وتقوم على أساس تتنزع النفس كل
ما يحيط بها من أدران وثالثها التجريد من شأن الصوفي الحقيقي لأن يوصله بما لا يقبل الشك
إلى حدّ التوكل والتفويض حيث يطرح الصوفي كل الشهوات في مرحلة المجاهدة القائمة على
أساس محاسبة النفس للوصول إلى المعرفة » (14)

* الطاعة المطلقة :

1- التصوف العقلي :

وهو ما يدرك فيه مسحة فلسفية ويلعب العقل فيه دوراً أساسياً في المعرفة ومن هؤلاء المتصوفة العقليين : الكندي ، ابن سينا ، ابن العربي ... لكن ليس إنشغالهم بالعقل مانعاً لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية .

ب- التصوف العملي :

وهو التصوف الذي يقوم على الرياضة الروحية والمجاهدة النفسية بكبح جماح النفس عن شهواتها ، ويعتقد أصحابه أن رياضة النفس ضرورية لازمة كرياضة الجسد .

5- التصوف الذخيل :

الصوفية الذخيلة هي التي تقول بوحدة الوجود ومذهب الحلول ... فما المقصود بهما ؟
- مذهب الحلول يعني حلول الله في جسد الإنسان أي إن « الله متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام » (20)
- أما وحدة الوجود فمرادها فناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية أي إن الله هو مجموعة هاته الموجودات وأن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله .
والملاحظ أن هاته التعاليم لا يقر الإسلام أيّاً منها « فلا يقر مذهباً يقول بحلول الله في جسد الإنسان ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية » .
وإذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء فسره بفناء الشهوات أو فناء الأناية و حلول محبة الله محلها في القلوب والأرواح

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الإحالات :

- 1- محمد القاضي / وجهان الصوابية في الشعر التونسي / جريدة الجوهرة الفنية عدد 17 أكتوبر 1995
صفحة 10
- 2- عباس محمود العقاد / التفكير فريضة إسلامية - منشورات المكتبة العصرية بيروت صفحة 109
- 3- محمد القاضي / م . س . صفحة 10
- 4- هناك تعريفات أخرى للتصوف (أنظر : جميل صليبا / المعجم الفلسفي جزء 1 ص . 282 - 283
- 5- حسين أحمد أمين / دليل المسلم الحزين / ط - دار الجنوب - 1983 ص 84
- 6- المرجع السابق / صفحة 87
- 7- عبد العزيز الثعالبي / = روح التحرر في القرآن - دار الغرب الإسلامي طبعة 1 / 1985 ص 60
- 8- لم يعرف في تاريخ التصوف أحد لعب شخصية مذهب عدا القسيتين المشهورتين : الحلاج والسهوردي وهما في الواقع شخصية الفتنة وشخصية السياسة : إحدى القسيتين وقعت إبان فتنة القرامطة والأخرى إبان الحروب الصليبية .
- 9- حسين أحمد أمين / م . س . : صفحة 97
- 10 - الطريقة الرفاعية تميل إلى الأخذ بتعذيب النفس حتى كان من سنة أتباعها أكل الزجاج والسير في النار .
- 11 - وهي طريقة مشهورة بترقعة الدراويش الدائرية وكان من أتباعها من إختلطت تعاليم الشيعة كالشيخ رجب

البرسي ...

- 12 - عباس محمود العقاد / م : ص : 110
- 13 - كانت أقدم حركات الزهد في الإسلام ما روي عن أهل الصفة من أبي ذر الغفاري وولال بن رياح وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر ...
- 14 - عبد الأمير الأحم / الفيلسوف الغزالي - دار الأندلس طبعة 2 - 1981 - ص : 120 .
- 15 - أنظر كتاب : البداية والنهاية / ص : 227
- 16 - ابن خلدون / المقدمة - الجزء 2 - ص 587 / الدار التونسية للنشر .
- 17 - أنظر كتاب : المنقذ من الضلال / للغزالي .
- 18 - عبد الأمير الأحم / م . ص : 110
- 19 - أبو حامد الغزالي / المنقذ من الضلال / الدار التونسية للنشر - طبعة 2 - 1986 - ص : 83 .
- 20 - ابن خلدون / م . ص : 589
- 21 - عباس محمود العقاد / م . ص : 114 .



بقية ما في ص : 21

خاتمة :

آخر ما نود الإشارة إليه من موقع النقد الفلسفي ، أن مقالة اللاوعي تفترض التفكير المعمق والتبصر في نظام البرهان وخصائص السلامة الاستيعولوجية أولاً والوقوف على حدود المشروع النظرية خصوصاً وأن التحليل النفسي يروج رجّة هائلة مسلّمات الثقافة التقليدية ويجبر المرء على السقوط في الشك المولّد لليقين نورا يبيّن إلى أي قدر يستطيع الوعي التوسع لاختيار معرفة بجوانب استمرت خفية لكن فاعلة في الشخصية والثقافة البشرية .

صورة الوطن الموجود والمنشود

في ديوان أغاني الحياة

لأبي القاسم الشابي

بقلم : كونر اليحياوي

ما أجمل أن يكون الحديث عن الوطن بدء الكلام - أحلى الكلام - جنة الخلد الوطن - وما أجمل أن يكون الوطن - مهد ولحد الكائن الحي مرسوما شعرا موقعة أنغامه بصدي أيامه ، وما أجمل أن يكون شعر الوطن ووطن الشعر نابعا من رؤية رومانسية السيادة فيها كل السيادة للقلب موطن المشاعر والأحاسيس والحكم للأخيلة الجامحة لا تقف ولا تتقن بحد ، ولكن الأجل من هذا وبهذا كله أن تكون هذه الرؤية / الرؤيا مدارها نفس شفاقة مترعة ، مفعمة بحب عذري قدسي للوطن كنفس أبي القاسم الشابي :

أنا يا تونس الجميلة في لجج الهوى قد سبحت أي سباحه
شرعتي حبك العميق وإنني قد تنوقت مره وقراحه
لست أنصاع للواحي ولو مت وقامت على شبابي المناحه
لا أبالي ... وإن أرتقت دمائي فدما العشق يوما مباحه(1)

هذا الذي أفرد شعرة للوطن فلا تكاد تخلو قصيدة من أن يكون الوطن ملهما فيها . غير أن الوطن في شعر الشابي موجودا ومنشودا لم يخضرا في صوراً تقريريّة تحاكيه وتضبطه إطار جغرافيا محددا موصولا بمكان وزمان وشخوص وقضايا سافره بل تجلى في شكل شذرات ومضات منها ينتمي إلى الواقع [تونس الجميلة / شعب / وطن / مستعمر / طفلة / مستذكين / أم فتاة / أندية] ومنها ما ينتمي إلى المنشود : [غاب / حلم / علم / إرادة / حياة / مجد / عزم] ومن خلال هذا الإيقاع الدوري المتعاقب تتشكل البنية الدرامية للقصيدة لتجعل منها قصيدة حركة صاخبة وصراع متواصل تجانس حركة الوطن : تونس في مرحلة هامة من تاريخها مرحلة مقاومة المستعمر خطرا خارجيا انضاف إلى أخطار الداخل من آفات أخلاقية وأوبئة اجتماعية . لذلك حاولت رغم عسر ضبط المدونة تحديد ملامح كل من واقع الوطن بمختلف القضايا المتفاعلة التي رصدتها الشاعر [أخلاقية وسياسية واجتماعية] والوطن المنشود وطن الشاعر البديل . لنرى ونرصد مساهمة الشابي في حركة النهضة والبناء التي لم يكن الشعر بمعزل عنها بل لعله المؤسس لها المبشر بها لما للشعراء عادة من طاقة علي الخلم والخيال ولما لشاعرنا الشابي من رؤية استشرافية مستقبلية تفاؤلية طبعته شعره الوطني بطابع الإيحاء والرمز وجعلته يند عن المحاكاة والتقرير الجاف فيرتبط بالواقع ولكن لا ليحاكيه ويتجاوز به طاقة الحلم والحسد لا ليلغيه ومن ثمة تدرج أشعار الشابي الوطنية ضمن رومانسية بناءة

همها فعل المثقف في الجماعة / الشعب قوة بناعة لمجد الوطن .

صورة الوطن الموجود :

أ - فساد القيم

إن نفسا صافية كتفس الشابي متشعبة بكل القيم الإنسانية والأخلاقية الأصيلة والنبيلة التي يرشح بها كونه الشعري والتي يراها محركا للإبداع والخلق والبقاء في جميع الأنشطة البشرية ألهها فساد قيم بني شعبه الذي ركن إلى ظلمة اليأس في ظلّ واد الموت فعاش شاباً بقلب شيخ مفتقدا للطموح وإرادة الحياة لذلك صاح الشابي منددا مستنكرا مثل هذا الوجود :

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ أين الطموح والأحلام ؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان ؟ أين الخيال والإلهام ؟
أين يا شعب فنك الساحر الخلاق ؟ أين الرسوم والأنغام ؟
أين عزم حياة ؟ لا شيء إلا الموت والصمت والأسى والظلام (2)

ب - فساد الوضع الاجتماعي :

إن فساد القيم الدافعة للخلق والتجديد جعل الشعب يركن إلى الجهل والفقر والخلف والاختلاف وهي أوبئة اجتماعية جسدها الشابي في بعض صور قصائده إخبارا وتقريراً وتوثيقاً كما في مقطوعته الشعرية للتاريخ :

البؤس لإبن الشعب يأكّل قلبه والمجد والإثراء للأعزّاب
والشعب معصوب الجبين ، مقسم كالشاة ، بين الذئب والقصاب
والحق مقطوع اللسان مكبل والظلم يمرح مذهب الجلباب
هكذا قليل من حياة مرة في دولة الأنصاب والانتخاب

ولكن الداء العضال الذي رآه الشابي ينخر جسم مجتمعة المريض وعنه تولدت كل الأوبئة الأخرى هو : الجهل ويخس حق المثقف العالم / النبي / الهادي مما أدى إلى نوم وغفلة عن مراكب الكفر والإلحاد تلمس هوية الشعب وتدس حرمانه لذا صرخ الشاعر الإنسان مستغزاً رجال الدين :

يا حماة الدين

لقد نام أهل العلم نوما مغنطسا فلم يسمعوا ما رددته العوالم
سكنم حماة الدين! سكنته وأجم ونمت بملء الجفن والسيّل داهم
سكنم وقد شتمتم ظلّاما ، غصونه علانم كفر ثائر ومعال
مواكب إلحاد وراء سكوتكم تضجّ بها إن الفضاء ماثم

فساد الوضع السياسي :

ينضاف خطر المستعمر الخارجي إلى جملة الأخطار الداخلية في دولة الانتصاب والالقاء ليعمق
 بؤس شعب جاهل لذلك يتكفّف في شعر الشابي تصوير المستعمر قاهر الشعوب الضعيفة سالبا
 إرادة الحياة في خطاب سافر يفصح حقيقة سياسته ويشاعة نواياه فتشكّلت بعض قصائده
 رسائل مباشرة إلى الطاغية ، إلى طغاة العالم :

ألا أيّها الظالم المستبدّ حبيب الظلام ، عدو الحياة
 سخرت بأنات شعب ضعيف وكفّك مخضوية من دماء
 وسرت تشوّه سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رياه (5)

قصيدة « الدنيا الميتة » تجسيد لصورة الوطن الموجود كما يراه الشابي :

إنّي أرى ... فأرى جموعاً حيّة لكنّها حياً بلا ألباب
 يدوي حوالها الزمان كأنّما يدوي حوالى جندل وتراب
 وإذا استجابوا للزمان تناكروا وتراشقوا بالشوك والأعصاب
 وقضوا على روح الأخوة بينهم جهلا وعاشوا عيشة الأغراب
 لعب ، تحركها المطامع واللّهي وصغائر الأحقاد والآراب
 وأرى نفوساً من دخان جامد ميت ، كاشباح وراء ضباب
 موتى نسوا شوق الحياة وعزمها وتحركوا كتحرك الانتصاب
 الشاعر الموهوب يهرق قنّه هدرا على الأقدام والأعتاب
 والعالم النحرير ينفق عمره في فهم ألقاظ ، ودرس كتاب
 والشعب بينهما قطيع ضائع دنياه دنيا ماكل وشراب (6)

« الدنيا الميتة » : يحيل عنوان القصيدة في ظاهره على تقابل بين الموت والحياة ولكنّه في
 باطنه يحيل على تماء بينهما ما دام أهل هذه الدنيا لا يحيى منهم غير الجسد الفاني بمطامحه
 المادية الضيقة بعد أن ماتت وسلبت منهم الروح والحركة وضمير الحياة : « فربّ عيش خير منه
 الحمام » وربّ وطن هو مقبرة الأحلام والشباب ما دام أهليه موتى دفنوا عزم الحياة وهذه هي
 صورة الوطن الموجود عند الشابي بكلّ أوجاعه وآلامه [الأخلاقية والإجتماعية والفكرية] صورها
 إستناداً إلى تجربة ذاتية وخبرة ميدانية بلوضاع شعبه الذي كان الشاعر متوحّداً به ساخطاً
 يائساً منه أحيانا ناقداً مصلحاً أملاً فيه أحيانا كثيرة ويظهر هذا من خلال تكرار فعل الأنا : «
 أرى » (4) بما يتضمّنه الفعل من رؤية ومشاهدة حسية يقظة وعن إدراك عقلي عميق فإذا الفعل
 جامع بين حدّة البصر ويقظة البصيرة وهذا ما جعل الشابي يتجاوز في شعره تصوير « وطن
 موجود » إلى كشف ملامح « وطن منشود »

2 = الوطن البديل / الوطن المنشود في أغاني الحياة :

لم يضبط الشابي معالم وطن بديل قنن له سبل نهضته ودعائم إصلاحه لأن ذلك من وظائف رجال السياسة والاجتماع من محبي الإصلاح ومناصري التغيير بل شعره تغن بملاح أرض / أم / وطن فيه من الأحلام والأمال الإنسانية الكثير يأخذ من بشائره ومن فجره القدسي « ومن صباحه الجديد كل وطن ولكنه متجاوز لكل الأزمنة يند عن الضبط والتحديد لذلك لا نكاد نضبط في شعره مواقف إصلاحية تتصل بمختلف قضايا الوطن بل نلامس في شعره جملة من القناعات والمبادئ آمن بها الشابي سبيلا لكل تجدد وتغيير وهي بعض من كل :

* الإيمان بفاعلية القيم الأصيلة

عالم الرومانسي قيم إنسانية خالدة مصيرها القلب وشفافية الروح وأهمها فيما يتصل بالوطن الحب والفكر الحرية التي هي ثلاثة أقانيم في ذات واحدة أزلية لا تزول ولا تضمحل لأن الحب وما يولده والتمرد وما يوجده والحرية وما تنميه مرتكزات منها يكون البناء والبقاء وهذه الأقانيم بذرتها الإرادة التي يتلازم معها حتما انكسار القيود والأغلال وانجلاء المطام وتبديل المسائل :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها وانثثر (7)

2 = الإيمان بالعلم وبدور المثقف المقدس :

لقد جرد الشابي من نفسه نموذجاً للمثقف / الهادي / النبي الذي سخر ذاته وفنّه وأدبه لخدمة جماعته رغم نكرانها وجحودها ولكنه ظل ذلك البطل الدرامي في قصائده التي ترشح بصور اضطهاد من قبل جماعة داست وحقبة وأهقرت كائسه ولكنه أبدا لا يئس من هدايتها ويث روح اليقظة والثورة فيها : إستثنى الجذور الجهل والفساد وغرسا لبذرة الثورة ايماننا بفاعلية الشعب :

أيها الشعب ليتني كنت خطّابا فأهوي على الجنوع بفأسي !
ليتني كنت كالسيول ، إذا سالت تهدّ القبور رمسا برمس !
ليت لي قوة العواصف ، يا شعبي فالقي إليك ثورة نفسي !
ليت لي قوة الأعاصير إن ضجّت فأدعوك للحياة بنبسي ! (8)

3 = الإيمان بفاعلية الشعب :

يؤمن الشابي بالشعب قوة هائلة تخترل طاقات الأفراد ايمانه بمالثقف الجسور قائدا للجماعة فالشعب عنده :

أنت في الكون قوة لم تتسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبالتها ظلمات العصر من أمس أمس
والشقى الشقى من كان مثلي في حساسيتي ، ورقة نفسي (8)

وإيمان الشابي بثورة وبيعته شعبه رغم بأسه منه يتجلى في قصائده الحماسية خاصة مهذبا
محذرا للمستعمر الطاغية من صيحة شعب مسخر تخر لها شمّ العروش وتهدم :

لك الويل يا صرح المظالم من غد إذا نهض المستضعفون وصمموا

إذا حطّم المستعبدون قيودهم وصبّوا حميم السخط أيّان تعلم .. ! (10)

ولقد جمع الشابي هذه الدعائم الأساسية للنهضة والبناء في مقطوعة شعرية حصرت :
الشعب والعزم وحُبّ الحياة ثلاثة أغانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال في ذات الوطن : سرّ
النهوض :

لا ينهض الشعب إلّا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه

والحب يخترق الغبراء مندفعاً إلى السماء إذا هبت تناديه

والقيد يالقه الأموات ما لبثوا أمّا الحياة فيبليها وتبليه (11)

الغاب عالم الشابي الجديد والمنشود :

يحضر عالم الغاب في قصائد الشابي مقابلا لعالم « الدنيا الميتة » دنيا البشر التي رفضها
الشابي وبنى عالما سحرىا قده من كلّ القيم الجميلة الإنسانية الخالدة الملهمة لروحه وفنّه ولم تجد
حرما مقدسا يحتضنها فاختر عالم الطبيعة الخصب والجميل إطارا لعوالمه الرحبة فكانت الغاب
بما يرتبط به الغاب من عوده للطبيعة الأمّ البكر لم تدنسها أخطار المدنية ولا إفك الجماعة فهرع
إليه الشابي يستمد من جماله السرمدي ومن نورة الحياة الأزلية فيه روح الحياة لذا ترسّخ
صورة الغاب وطن ملاذ الشابي بأبعاد رمزية تتلون بأنواق وأشواق الشابي :

الغاب

<http://Archivebeta.sakhril.com>

بيت بنته لي الحياة من الشذى والظلّ والأضواء والأنغام

بيت من السحر الجميل مشيدّ للحبّ ، والأحلام ، والإلهام

في الغاب سحر رائع متجدّد باق على الأيّام والأعوام

في الغاب ، في الغاب الجميل وإنّه حرم الطبيعة والجمال السامي

ظهرت في نار الجمال مشاعري ولقيت في دنيا الخيال ملامي

ونسيت دنيا النّاس فهي سخافة سكرى من الأوهام والأثام (12)

ولكن ميهات أن يستطيع الشابي الركون إلى العزلة والقطيعة وحياته كحياة كلّ فرد روابط
ومسؤوليات تشدّه إلى الآخر وإلى دنيا النّاس فإذا لأحلامه قيود وحدود كما عبّر عن ذلك في
قصيدته : « قيود الأحلام » :

ولكنّي لا أستطيع فإنّ لي أمّا ، يصدّ حنانها أوهامي

وصغار أخوان ، يرون سلامهم في الكائنات معلقا بسلامي

فقدوا الأب الحاني فكنت لضعفهم كهفا يصدّ غوائل الأيام
فأنا المكبل في سلاسل حيّة ضحيّت من رأفي بها أحلامي
وأنا الذي سكن المدينة مكرها ومشى إلى الآتي بقلب دام (13)
لقد أثر الشابي في شعره أن يصدح بصوت المحبّ الصادق الفيور على شعبه وقضايا وطنه
على أن يكون له دور المصلح المغرور لذلك لم يضحى بشعرية شعره خدمة للقضية كما لم يعملها
بل تجنّب الخطابة التسجيلية التقريرية فارتقى بقضيته إلى ذري تعبيرية سامية تتجاوز الطرح
الآني الضيق إلى طرح إنساني فني خالد .

المصدر : ديوان أغاني الحياة : الدار التونسية للنشر

القصاص :

- 1 - قصيدة « تونس الجميلة » ص 24 - 25
- 2 - قصيدة « إلى شعب » ص 246 - 248
- 3 - قصيدة « للتاريخ » ص 224 - 225
- 4 - قصيدة « يا حماة الدين » ص 161
- 5 - قصيدة « إلى طافية » ص 260 - 261
- 6 - « الدنيا الميتة » ص 272 - 273
- 7 - قصيدة « إرادة الحياة » ص 236 - 237
- 8 - قصيدة « النبي المجهول » ص 145 - 146
- 9 - قصيدة « النبي المجهول » ص 146
- 10 - قصيدة « إلى الطافية » ص 63
- 11 - قصيدة « سر النهوض » ص 189
- 12 - قصيدة « القاب » ص 262 - 263 - 264
- 13 - قصيدة « قيود الأحلام » ص 169 - 170



السَّاف في شعر المتنبي

بقلم : عبد مجيد بن عمر

السَّاف هو الرديء من كل شيء ، والحقير منه . وفي الحديث الشَّريف « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ مَعَالِي الْأُمُور وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » .
وشعر أبي الطَّيِّبِ المتنبي في معظمه من معالي وأجود الأشعار . إِلَّا أَنَّهُ « لِكُلِّ جَوَادِ كِبُورَةٍ »
فهو أحيانا يأتي بسفساف النظم ممَّا يجعله محلَّ النَّقْدِ اللَّاذِعِ وفي هذا الصَّدِّدُ قال ابن الأثير
« إِنَّ خَمْسَ شُعْرِ الْمُتَنَبِّي فِي الْغَايَةِ الْمُتَقَهَّرَةِ الَّتِي لَا يَعْبَأُ بِهَا وَعَدَمِهَا خَيْرٌ مِنْ وَجُودِهَا . وَلَوْ لَمْ
يَقْلَهَا لَوَقَّاهُ اللَّهُ شَرًّا فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي أَلْبَسَتْهُ لِبَاسَ الْمَلَامِ ، وَجَعَلَتْ عَرْضَهُ لِسَهَامِ الْأَقْوَامِ »
(1) .

ولقد أحصى له مناقسوه أبياتا من شعره حكموا بها عليه إمَّا بسرقتها من غيره (2) أو
باعتبارها معقَّدة أو خالية من المعاني ، ولقد عدَّه أبو القاسم عبد الله بن عبد الرَّحْمَنِ
الإصْفَهَانِي من رِوَاةِ الشُّعْرِ (3) فقال : « وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي أَنَّهُ مِنْ حِفَاطِ
اللُّغَةِ وَرِوَاةِ الشُّعْرِ وَكُلِّ مَا فِي كَلَامِهِ مِنَ الْغَرِيبِ الْمَصْنُوفِ سِوَى حَرْفٍ وَاحِدٍ هُوَ فِي كِتَابِ الْجُمُورَةِ
وهو قوله « وَأَطْوَى كَمَا يَطْوِي الْمَجْلِدَةَ الْعَقْدُ » (4) . وَأَمَّا الْحُكْمُ عَلَيْهِ وَعَلَى شِعْرِهِ فَهُوَ سَرِيعُ
الْهَجْمِ عَلَى الْمَعْنَى وَنَعْتِ الْخَبِيلِ وَالْحَرْبِ مِنْ خُصَائِنِهِ وَكَمَا كَانَ يَرَادُ طَبْعُهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا
يَسْمَحُ : يَقْبَلُ السَّاقِطَ الرَّدَّ كَمَا يَقْبَلُ النَّازِلَ الْبَدْعَ رَفِيٍّ مِمَّنْ شِعْرُهُ وَهِيَ (5) وفي ألفاظه تعقيد
وتعويض . وقال عبد الرحمن بن خلدون في مقدِّمته (6) « وَكَانَ شَبِيحُ الْأَدَبِ يَعْيَبُونَ شِعْرَ
الْمُتَنَبِّيِ وَالْمَعْرِيُّ لِعَدَمِ النَّسْجِ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ . فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا نَازِلًا عَنْ طَبَقَةِ
الشُّعْرِ وَالْحَاكِمِ بِذَلِكَ هُوَ النَّوْقُ » .

أما التَّبرِيزي (7) فيقول : « وَدِيَانُ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِ مَشْهُورٌ وَالْجَيْدُ مِنْهُ لَا يَجَارِي فِيهِ وَلَا يَلْحَقُ
وَالرَّدِيُّ مِنْهُ فِي غَايَةِ الرَّذَاةِ وَالسَّقُوطِ » .
ومن خلال قراءة شعره نجده يتساهل في مخالفة القواعد النحوية والصرفية ممَّا يحطُّ من
قيمة شعره وهذا مثل قوله :

فَلَا يُبْرِمُ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ حَالٌّ وَلَا يُحْلِلُ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ يَبْرِمُ (8)

والشُّعْرُ الْمَطْبُوعُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَدَارُ وَيَنْتَظَرُ فِي فَصَاحَتِهِ وَجَزَالَتِهِ مَعَ ظَهْوَرِ الْمَعْنَى وَعَدَمِ الْخَفَاءِ
وَسَبَبِ شَذُوذِ الْخَمْسِ مِنْ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِ هُوَ حَرْصُهُ عَلَى اسْتِفْلالِ الْمَحْسَنَاتِ الْأَفْظِيَّةِ وَالْإِكْتِنَارِ مِنَ
الْجِنَاسِ وَالطَّبَاقِ حَتَّى أَنْتَى بِهِ الْحَالُ إِلَى السَّفْسَافِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِ النَّقَادُ وَفِيمَا يَلِي الْأَمْثَلَةَ عَلَى

قال علي لسان أحد التَّوْخِيين :

حَدِيدُ الْحَاطِ حَدِيدُ الْحِفَاطِ حَدِيدُ الْحُسَامِ حَدِيدُ الْجِنَانِ

وقال من قصيد يمدح المغيث بن علي بن بشر العجلي

وَلَمْ أَرْ مَثَلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي لِمَثَلِي عِنْدَ مِثْلِهِمْ مَقَامُ

وقال من نفس القصيد .

قَبِيلُ أَنْتَ أَنْتُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ بِشَرِ اللّٰكِ الْهَمَامُ (9)

ومن قصيد أنشدته في صباه قال :

فَقَلَقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَلَ الْحَشَا قَلَانِلُ عَيْسٍ كَلَّهْنُ قَلَانِلُ (10)

ومن قصيد في مدح أبي الفرج محمد بن الحسين القاضي المالكي ، قال :

وَالضَّعْفُ حَتَّى يَتَّبِعَ الضَّعْفُ ضَعْفُهُ وَلَا ضِعْفُ الضَّعْفِ بِلِ مِثْلِهِ أَلْفُ (11)

قصيد أبا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد الخصيبي ، قال :

الْعَارِضُ الْهَتَنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَنِ (12)

ولقد حذر المتنبي نفسه وغيره من التكلف والإرتجال ومخالفة الطبع فقال :

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتُ تَفْهِيرُ تَكْلُفُ شَيْئٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

ورغم ما حذر به نفسه من الوقوع في الابتذال وسخف القول فإنه يتركه ويلوم نفسه فيقول :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هَذَا لَيْسَ شَيْئًا وَيَعْضُهُ أَحْكَامُ (13)

منه ما يجلب البراعة والفضل ومنه ما يجلب البرسام (14)

ومثل هذه التوافه في الشعر وقع فيها شعراء فحول كثيرون بسبب تعمدهم التكلف ، وهذا مثل

ما جاء في وصف امرئ القيس لفرسه حيث قال :

وَأَرْكَبُ فِي الرُّوعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعْفُ مَنْتَشَرُ (15)

ففي هذا البيت تعقيد معنوي أخذه عليه النقاد لأنه يخالف أثر علم المعاني في بلاغة

الكلام (16)

ومن نقاد العصر الحديث من قام بالتجريح والخط من قيمة أبيات من شعر المتنبي ومنهم

الدكتور طه حسين فقد أورد أبياتاً من شعر المتنبي وتناولها بالتحليل وأظهر عيوبها وسخفها

ومنها قوله من قصيدة في مدح محمد بن رزيق .

أَبْقَى زُرَيْقٌ لِلثُّغُورِ مُحَمَّدًا أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسًا (17)

فعلق على البيت قائلا « انظر إلى هذه التّفنّة ، أو إلى هذه الفسفة ، أو إلى هذه النسبسة التي تأتي من تكرار النّفس ثلاث مرّات في شطر واحد ، وأعذر ابن زريق إذا ضاق بصاحبه المتنبي أولاً ، وبهذا التكرار ثانياً ، وبما سيأتي من السّخف ثالثاً ، فلم يعط الفتى إلا عشرة دراهم ولم يزدّه إلا بعد أن شفع إليه الشّافعون وزاد المتنبي في المدح » . وقال الدكتور طه حسين أيضاً « اقرأ معي داليتّه التي مدح عليها بن الحسين ، ولا تطلّ الوقوف عند مطلعها الغامض البغيض الذي أنكره القدامى ورأوا فيه ألفاظاً وخطأ في الحساب وبعداً عن الشّعور .

أحاد أم سداسٌ في أحاد أُيّلتنّا المنوطة بالتّنادي (18)

هذا البيت السّخيف تجد مثله كثير في أجمل شعر المتنبي وأروع . »
وعلى خلاف ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من لستتقاص لقيمة هذا البيت وتجريح له نجد أبا الفتح بن جنيّ قد أطنب في شرح البيت ولم يعتبره تافهاً ولا سخيفاً فقال : « استطال ليكته فقال هي واحدة أم ستّة واختيار الستّة دون غيرها من العدد لأنّها الغاية التي فرغ الله تعالى من جمع أحوال الدّنيا وصنّف الدّية تصغير اللّية التّعظيم كقول أوس :

فويق جبيل شامخ الرأس لم تكد لتبلغه حتّى تكلّ وتعملا
والتّنادي يريد به الرّحيل وقود الخيل إلى الأعداء ألا تراه يقول فيما بعد :

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي

وفي ص 39 من كتاب الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني تعليقه بما يخالف قول ابن جنيّ فقال : « أمّا استشهاد أبي الفتح بقوله تعالى « هو الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام » فليس من هذا الحديث في شيء . لأن المتنبي ذكر اللّيل والشّعراء يستطيلون ليالي الشهر والفكر ويحيلون بتضاعف الفموم والهواجس فيها عليها وكذلك عند الأطباء إنّ الأمراض تشتدّ ليلاً لأنّ طبعه الضمّ والقبض والخثورة والجمود ، وبالنّهار تنفّش البُخارات عن البدن وتتحلّ أجزاء العلل ، وليس بين الشّعراء وبين الأيام تعلق في أمر ما يسهر بل يقولون إنّ المخزون والمعتم ينشرح صدره ويخفّ ما به لمحادثة النّاس وملاقة الأشخاص .

ويقول : « إنّما معنى بيت المتنبي إنّ ذهبت به مذهب العدد فأضفت الواحد إلى الستّة والمراد إلى الأسبوع فتكون استطالة اللّيلة الواحدة كاستطالة ليالي الأسبوع ووقف عند هذا الحدّ كقول :

إنّي إذا ما اللّيل كان ليلتين ولجلج الحادي لسائين اثنتين
فهذا جعل واحدة ثنتين ، وأوس بن حجر جعل للثلاثة ثلاث ليال فقال :

ولقد أتيت بليلة كليال وكأنّ تحت الجنب شوكة سيّال

والمتنبي جعل اللّيلة الواحدة ليالي الأسبوع طويلاً ووقف عندها ، وإن ذهبت بالبيت الواحد والستّة مذهب الضّرْب فبقي معنى لطيف لأنك إذا ضربت الواحد في الستّة رجع إلى الواحدة وإذا ضربت الاثنين في الستّة زاد إلى قدّام (19) فيكون المعنى إنّ هذا الليل يرجع إلى الواحدة فلا

يتصرّف آخره . وقال البرقوقى في ج 2 من شرحه لديوان المتنبي ص 74 . « قوله أحاد يريد أحاد فحذف همزة الاستفهام للضرورة وإن لم يكن بالفصيح وأحاد من الأبتية التي سمعت عن العرب ومثلها ثناء وثلاث وديع .

وقاسه المؤلفون إلى العشرة وقال : ولا يستعمل أحاد في موضع الواحد فلا يقال هو أحاد أي واحد إنما يقولون جاؤوا أحادا : أي واحدا واحدا وكذلك سداس . »

الهوامش:

- 1 - قارن ابن الأثير بين ثلاثة من لحول الشعراء وهم (المتنبي وأبو تمام وأبو عبادة الجحري) وخلال ذلك قسم شعر المتنبي إلى خمسة أقسام باعتبار الجودة واستثنى خمسة وعده من الشعر الردي .
- 2 - ابن بسام النحوي كتب من سرقات المتنبي والشاعر الأمير أبو فراس الحمداني اتهم المتنبي بسرقة الشعر عندما أنشد قصيدة (وأحر قلباه) في مجلس سيف الدولة .
- 3 - أبو القاسم الأصفهاني صاحب كتاب الواضع في مشكلات شعر المتنبي
- 4 - المجلد يروي المجلدة أي الذناب الجامعة المهاجمة طيبت المكان الذي تطوى مراحلها ، ويطوي بطنه عند الجوع حين فراغها من الطعام ويقصد أنه يصير على الجوع والعطش ومتاعب السفر .
- 5 - وهي : أي ضعف
- 6 - مقدمة ابن خلدون ص 1107 المجلد الأول الطبعة الثانية مطبعة دار الكتب ببلتان عام 1961 .
- 7 - هو أبو زكرياء يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب
- 8 - الأصل بالذخام : حال و يحل
- 9 - قيل : أي الجماعة . أي قيل أنت منهم مع ما أنت عليه من العقلة وكذلك جندك الملك فيكلمهم ذلك فخرا
- 10 - التلاقل : هي الأبل السريعة أو هي خفافها . وتقلل : بمعنى أسرع . والعيس هي الأبل
- 11 - ضعف الشيء مثله مرة أخرى - معنى البيت أن ممنوحة لا يماثله أحد في الصفات الحميدة وهي إن وجدت عند غيره فإن ممنوحة يفرقه أضعافا وأتى ببل للإضراب فقال بل مثله ألف مرة .
- 12 - العارض : هو السحاب المعروض في الأفق والهن كثرة الانصباب
- 13 - القريض هو الشعر وعذاء بمعنى الهذر والهديان والمعنى إن البعض من الشعر المنظم هذيان وهذر وخلق بما لا ينبغي أن يقال .
- 14 - البرسام : نوع من الجنون وقد اعتبر قول الشعر غير المحكم مجلبة للجنون واختلاط العقل . وفي البيت مايثير شكوك القارئ من إعراب الكلمات وسبب ذلك هو ما فيه من تعقيد ، وإإعراب يتضح الأمر ، ما نكرة ومائدها محذوف من يجلب أي يجلبه
- 15 - الخيفانة : هي الجراة شبه بها فرسه في الخفة والسرعة والقفز والسعف هي أوراق النخيل وأراد به شعرنا ناصيتها .
- 16 - وقد عاب النقاد أيضا على ابن هانئ تكلفه وسداجة قوله عندما طلب منه الأمير أن يقول شعرا خاليا من الكلاب فأنشد قائلا .

الليل ليل والنهار نهار والبغل بغل والحمار حمار

والديك ديك والدجاجة مثله وكلاهما طير له منقار

وكذلك بشكر بن برد أتى بالسُفوف والأفوف في قوله الذي عنى به جاريته

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وسئل بشكر عن السُفوف الذي جاء في هذين البيتين : « إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت ٩ » فلجاب الكل وجه موضح فإني ما قلت لربابة جاريته تستحسنه وهو عندها أحسن من :

« قفا نيك من ذكرى حبيب وعزل »

ومن السُفوفة والسُفوف في الشعر قول شاعر آخر

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

17 - الوماسة بين المتنبي وخصومه ص 78 (طبع العرفان بصيدا) ووثيقة النهر للعلالي ج 1 ص 124 (طبع اسماعيل الصاوي) . انظر ص 85 من كتاب : مع المتنبي لطف حسين .
18 - البيت يعد من معضلات شعر المتنبي لغموضه وتداخل معانيه وقد اهتم النقاد بتحليله وشرحه واختلفوا في معانيه .

19 - التعداد وهو جمع كمية مع أخرى فتكون (في) في البيت للمصاحبة .
قوله رجع إلى الوراء أي إلى المكان الذي ابتداء منه وهذا تعبير عن انعدام الفائدة من عملية ذلك الضرب لأن ضرب العدد في واحد لا ينتج إلا مثل العدد المضروب وقد بين بقوله « رجع إلى الوراء » .
ويعد لأن هذا البيت تلقى ومضول (قال ابن هشام في مفتي اللبيب في مبحث (أم) وأعلم أن هذا البيت اشتمل على لحنات استعمال أحاد وسداس بمعنى واحدة وست وأثما هما بمعنى واحدة واحدة وست ست إلى آخر كلامه .
يريد أن صيغة فعال ومفعول إذا جاءت من أسماء الأعداد فهي معدولة عن تكرير اسم العدد تكرير ترتيب كقوله تعالى « أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع » أي اثنين اثنين ، وثلاثة وأربعة .
وقال الواحدي : هذه الليلة واحدة أو ليالي النهر كلها جمعت في هذه الليلة الواحدة حتى طالعت وامتدت إلى يوم القيامة (1)

وقال البرقوقي « وصارة الشراخ إن هذه الليلة منوطة بيوم القيامة فهي طولها بمنزلة ليالي بمنزلة الدُر كلها .
(والتثادي هو يوم القيامة) . (2)

1 - المرجع : شرح البرقوقي لديوان المتنبي ج 1 ص 74

2 - سمي يوم القيامة بيوم التثادي لأن النداء يكثر فيه .

بين التجريد الفني والتجريد الهندسي

معرض التشكيلي: مصطفى عمي - رائحة الأشياء - بدار
الثقافة بسليانة .

بقلم : لطفي عمي

« أسمى فناً تجريدياً كل فن لا يحتوي على أي تذكرة أو استحضار للحقيقة المنظورة ، سواء كانت أو لم تكن تلك الحقيقة نقطة إنطلاق الفنان .
كل فن يُقيم فقط من خلال : النغم ، التركيب والنسق ، أو من خلال اللأنغم ، اللتركيب والغوضى المقصودة : يعتبر تجريداً . »

1 ميشال سولفور Michel Seuphor

عندما نخترق فضاء العرض ، ونجد أنفسنا وجهاً لوجه مع شريط اللوحات : نحس أننا محاصرين بزخم من لقطات متسارعة ، تُراوح بين المفرغة والممتلئة ، بين القاتمة والمضيئة ، بين المتحركة والسكونية ، بين الغويي الهندسي والهندسي .
اللوحات تتدلى غير نمطية منقمة ... تحيل فضاء العرض إلى حامل لشحنات إشراقية تصهر الذات بعالمها الأول .

إنطباعنا : يتولد منذ الاطلالة الأولى ، الأحجام المتفاوتة للوحات والتقنيات المزوجة تحيلنا إلى حقل أركيولوجي من خلاله يمكننا إجراء مقارنة لتطور هذه التجربة التشكيلية من المرحلة الناشئة إلى طور جريفي .

من كاندنكي (2) Kandinsky إلى موندريان (3) Mondrian

يسعنا أن نصنف أعمال التشكيلي : مصطفى عمي ضمن المدرسة التجريدية بشقيها : الفناني Lyrique والهندسي Géométrique ، حيث يعرف هريان (4) Herbin « الفن التجريدي : لا تصويري ولا موضوعي ، إنه لا يمت بصلة مع الظواهر الخارجية إنه بالنسبة للرسم : عبارة عن سطح أو فضاء نشط بجملة من خطوط ، أشكال مساحات وألوان بمقادير متفاوتة »
مصطفى عمي ينساق عبر أعماله نحو نداءات الذات الباطنية الموقلة في البداوة ، إنها محاولة الإنصهار في العلل الأولى التي تنفتحت منها المعلومات الراهنة .
إن اللامصالحة بين الذات المطبقة على الحقيقة وبين المنظور الجمعي الواقعي تؤكد حالة من التوتر الداخلي وحالة من الردّة تجاه الطبيعي .

الخيالات وحدها عبر الموسيقى الباطنية والحركات العفوية الغريزية والألوان النقية تشكل المواد التشكيلية الأساسية التي تحيل الحوامل إلى وحدات جمالية متكاملة وحرّة .
وفي ذات الحين نجدّه ينخرط في محاولة تنظيمية وبنائية تعكس مرجعيته المعرفية ، حيث يجرب التعبير عن توازن ديناميكي *équilibre dynamique* من خلال الأفقيّات *les hori-* *zontales* والعموديّات *les verticales* والألوان النقية *couleurs pures* للنفوذ إلى الأشكال الأكثر بساطة وتقافة ، إنه يحيل الناظر إلى الألوان الأولى والأنوار المؤسسة التي من خلالها أنبثق الوجود .

إنه يبحث عن لغة عالمية منفتحة باطنية تعزف على أوتار الرّوح لتحرّر الأصوات الدفينة في سراديب الذات .. سراديب الانفلاق والنشأة ، فهو يهدف إلى تحطيم الفضاء وإحالة إلى سطح : تحطيم الواقع وإكراهاته عبر إسقاط تخيلي ، ينطلق من الخارج إلى الباطن من المعقد إلى البسيط من المنظور إلى الوجداني الرّوحي .

إن المرجعية المعرفية لمصطفى عمّي ككل فنان عربي لا تتركز فقط على المحاولات التجريدية الغربية مع مطلع هذا القرن عبر تنظيرات كاندنسكي *Kandinsky* الغنائية *Lyrique* أو موندريون *Mondrian* الهندسية *Géométrique* .

فالحضارة العربية الإسلامية عبر مميزاتها المعرفية المتفردة ، وإيفالها في عالم التجريد بدافع النصوص المؤسسة ، طورت مجموعة من الرموز والتقنيات عبر الممارسات المدنية الطويلة ، خاصة الهندسة المعمارية ، مثل المنمنمات ، المقرنصات ، الرقش ، والحروفية .. أنشأت فضاء جمعي غني حيث تلتحم الذاكرة والأشعور الجمعي بالطقس التيوسوفي *Théosophique* لتحيل الفنان إلى معطى تشكيلي متفرد .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الضوء والشكل الأول :

اشتمل المعرض على أكثر من مئة لوحة بين الكبيرة والصغيرة ، وهذا الكم الهائل يعجز عن تحصيله معرض جماعي . إنه باختصار ظاهرة ملفتة للنظر .

اللوحات الصغيرة تمثل حقلا تجارياً خلاله تخفرت التجربة وترقت التقنيات المزوجة : *téchniques Mixtes* لتجعل من اللوحات الكبيرة آخر مراحل النضج والإفصاح عن الخيارات الكبرى للتوجه التشكيلي للفنان مصطفى عمّي .

لا يسعنا في هذا الفضاء الضيق أن نعالج بالدرس جميع الأعمال المعروضة ، في اللوحات : *جوّ مغيّم Temps Morne* ورمد وقش *cendre et paille* وهي مائية على ورق *Gouache sur papier* : نلاحظ بوضوح تقنية المبلل على المبلل *Mouillé sur Mouillé* حيث تحيلنا هذه التقنية إلى تداخلات لونية عفوية ، حذرة وسريعة ، اللمسات الخاطفة والمكوكبة للفرشاة فوق الخلفية الفاتحة تحيل الحوامل إلى مصادر مسكونة بالحركة . إنه البحث عن اللقطات المشحونة حيث يمتزج الخارجي بالداخلي ، الزماني بالأزلي ، المادي بالروحي ، إنها رؤى إنطباعية *Impressionniste* تمثل التحول من الواقعي إلى التجريدي ، إنّها محاولة

للمفارقة نحو فضاءات الروح .. نحو الأسباب الأولية les causes primaires للبحث عن النغم الأزلي .

إن منتهى التجريد والفوضى في احتفالية الذات يتجلى في اللوحتين : حدس مفروط Intuition démesurée وفرس جامع Jument Fougeuse إنها رقصات حميمية على أنغام منطلقة من الأعماق .. إن استعمال الألوان النقية عبر حركات خاطفة تحيل الخليط إلى مسحة من التضاد حيث تغذي الحوامل بشحنات باردة وأخرى ساخنة تبعث حركية منطلقة بدون سكون .
التجريد الهندسي يأخذ أبعاده الكاملة في اللوحتين : قطع مصفوفة Pièces ordonnées وإثارة البني Excitation du Marron

إن الأشكال الهندسية المتناظرة المصفوفة عبر أنساق مختلفة ومنظمة : تستقر فينا تلك الإيقاعات البديهية إنها باختصار العودة إلى الوحدات الأكثر بساطة وثبات حيث تتداخل فيما بينها لتبعث في الحوامل توازنا ديناميكياً يمنحنا حالة من السكينة .. إنها تعيدنا إلى نقطة البدء إلى منطلق التشكيل الأول إلى عالم قدسي إلى عالم الثبات الأول .
هذا المعرض يعتبر الثاني بالنسبة لمصطفى عمي ، وهو يعكس بوضوح نضج الممارسة التشكيلية لديه ورغبته المتواعدة عن ذاته المتمردة .. الهاربة بدون توقف ، إنه ينطلق عبر الألوان والتقنيات ليضيف بعداً آخر لفضاءاتنا التشكيلية .

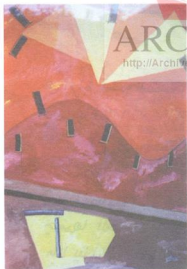
* الهوامش :

- 1 _ Hervé Loilier Histoire de l'art ed : ellipse p 373
2 _ واسلي كاندنسكي : Wassily Kandinsky (1866 : 1944)
رسم فرنسي من أصل روسي من أشهر منظري الفن التجريدي وهو رائد التجريدية الغنائية - L'Abstrait lyrique
3 _ بيات موندريون Piet Mondrian (1872 : 1944)
رسم هولندي يعتبر رائد التجريدية الهندسية L'Abstrait Géométrique
Hervé loilier Histoire: de l'art ed ellipse p 373 4
* المراجع :
Hervé Loilier : Histoire de l'art : ed : ellipse 1995 _ 1
D. HULST : MONDRIAN ed Bouking international 1994 _ 2
3 _ مجلة الحياة الثقافية : الأعداد : 73 _ 74 _ 76 _ 77 _ 78 _ 79 .
4 _ Peinture et dessin : Aquarelle peinture à l'huile gouache crayon - pastel - an - cre ed Hachette 1994 .



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>



إشارة البني



قرس جامع

تفخر - وبكل اعتزاز - القصيدة : المرأة الاستثناء الفائزة بالجائزة الأولى في الدورة الخامسة لجائزة عبد الميزيد سمود والباطون للإبداع للشاعر الفنان : محمد الشهاوي بخط يده وقد وأمانا بها - محسبوا - الصديق الميزيد الشاهر : عبد السلام لصليح .

المرأة الاستثناء

شعر / محمد محمد الشهاوي

لِيَنْهَمِ الشَّعْرُ بِالْأَغْنِيَةِ الْجَدِيدَةِ بَيْنَ يَدَيْهَا
طويلاً - طويلاً

أَلَا .. وَلْيُؤَسِّنْ - عَلَى قَدْرِهَا -

لُغَةً وَعَرُوضًا جَدِيدَيْنِ :

يَسْتَحْدِثَانِ مَقَالِيصَ أُخْرَى ..

وَذَا ثِقَةٍ ..

وَعُقُولًا

هِيَ امْرَأَةٌ تَشْبِهُ الشَّمْسَ إِلَّا أَفْولًا

عَلَى سَالِحِي الْأَلْقَمِ الْمُرْقَقِ :

- مُفَعَّمَةٌ بِلَصِيبِ الْوَضَاءَةِ

مُتَرَعَّةٌ بِأَرْيَحِ الْأَنْوَةِ -

تَسْلِمُ أَعْضَاءَهَا لِيَدِ السَّخْرِ تَرْسَمُ فِي

جَسَمِهَا الْخَضَّ أَخْتَى الْأَسَاطِيرِ

مَاذَا يَقُولُ لِسَانُ الْمَرَامِيِّ

عندها ..

إِذَا نَهَا أَرَادَ لَنَا أَنْ يَقُولَا ؟ ...

هي امرأةٌ تُسَبِّهُ المستحيلاً

...

هي امرأةٌ يَسْرِبُ النُّورُ من قَدَميها [اللَّتَيْنِ
تُسَقَانِ] .. هَاطَلَتِ السَّنَا

وَالذَّيْ

كَ يَبِلُ الصَّدَى

وَالْمَغْنَى - هُنَاكَ مُخْتَمِماً بِأَوَارِ التَّرَاتِيلِ
يُرْسَلُ لِلْأَنْهَاءِ فِي مَقَلَّتِيهَا

بِرِيدِ الْهَوَاوِيلِ ..

وَلَهُو يَنَاقِمُ رُقْرُقَةَ الصُّنُوءِ إِذْ يُتَدَرَّجُ فَوْقَ

حِبَالِ الْمَدَى

لِيَصَافِحَ فِي وَجْنَتَيْهَا الصَّبَاحَ الْجَعِيلَا

وَسَيِّدَةَ النُّورِ تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصَائِدَ

هَفَّتَاحُ بَابِ الدُّخُولِ إِلَى

بَاحَةِ الْمَطْلَقِ الْمُتَهَلَّلِ ..

آه .. وَأَفْتِ أَوْدَ الدُّخُولَا

هِيَ امْرَأَةٌ لَمْ تَرَاوُدْ سِوَى الْحِلْمِ عَنْ نَفْسِهِ ،
وَفَتَاها :

تَوَزَّعَهُ الْحِلْمُ / وَحَدَّةُ وَالسَّذَا ..

وَالجَوَى ..

وَالنَّحُولَا

فَأُتْرِعَ كُلُّ الْجِهَاتِ أَفَاقِيَّةً وَجِدٍ ..

بِهِ مَا بِهِ مِنْ ضَيْقٍ لَنْ يَحُولَا

أَجَلٌ ..

إِنَّهُ مَوْقِفُ الشُّوقِ وَالتَّوَقُّعِ ..

وَالشَّهْدِ وَالْوَجْدِ ..

<http://Archivebeta.sakhril.com>

وَالشَّدْوِ وَالسَّجْوِ ..

فَلْتَشْهَدِي - يَا جَمِيعَ الْمَوَاقِيتِ -

أَنَّ الْمَغْنَى مَازَالَتْ فِي حَضْرَةِ الشُّوفِ

يَتَلَوُ كِتَابَ صِبَابَاتِهِ ..

وَفَدَى مِنْ أَحَبِّ يَمُوتَ قَتِيلَا

...

وَيَا سَيِّدِي الْوَجْدِ :

إِنَّ لَنَا مَوْعِدًا عَقَدْتُهُ الْعَيُونَ ..
وَوُثْقَةً الصَّمْتِ ..
وَالصَّمْتُ أَبْلَغُ قِيلًا

...
أُحِبُّكَ يَا سَيِّدِي الْوَجْدَ / يَا ذَا الْخَلِيلِ الَّذِي
لَمْ يَمَلِّ الْخَلِيلًا
أُحِبُّكَ
فَاكْتُبْ إِلَى الْعُجْرِ أُغْنِيكَ

عَلَيْهِ
ARCHIVE
رَحْمَةً بِالْمُحِبِّينَ -

<http://Archive.org/Sakhrit.com>

الْأَيُّوْلَا

هِيَ امْرَأَةٌ تَشْبَهُ الْمُسْتَحِيلَا

...
هِيَ امْرَأَةٌ قَدْ تَفَرَّغَتِ الْمَحْزَنَاتُ لِتَشْكِيلِهَا
وَالْمَقَادِيرِ

دَهْرًا طَوِيلًا

...

... هي امرأة

و جميع النساء

سواها اذعاء

لها البحر من قبل بلقيس غرس ..

وكل المياه : اماء

يخاضرها الموج - في نهم - تمنعنا في الصباية :

جيلا ..

فجيلا

أقايضها بدمي ..

و جميع دفاتر شعري مقابل :

<http://Archivebeta.Sakura.com>

ان اتر يصف عبر فراديس ابهاثها ..

ان اجوسد خلال اقاليم لالاها ..

ان اسوح باغوار اغوار آلاها ..

او اجولا

أقايضها بدمي

و جميع دفاتر شعري مقابل

أَنْ أَتَمَلَّى مَفَاتِنَهَا
بُكْرَةً ..
وَأَصِيلًا

هي امرأة ..
هَذِهِ أَعْطَفَهَا عَيْقٌ
لَيْسَتْ دَلُّ عَلَيْهَا بِهِ
مَنْ يَوَدُّ الدَّلِيلَ

هي امرأةٌ تُسَبِّهُهُ الْمُسْتَحِيلَ
هي امرأةٌ تُسَبِّهُهُ الْمُسْتَحِيلَ

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

.....
.....
.....

هي امرأة ..
لَيْسَ لِي أَنْ أُسَمِّيَهَا
أَوْ أُلْفَ ..

لَطَّلَعَتْهَا الْقَلْبُ يَرْقُصُ حِينًا
وَحِينًا يَغْفَى

هِيَ الْوَاحِدُ / الْكُلُّ ،
وَالْكُلُّ فِي وَاحِدٍ ..

وَهِيَ مَنْ لَا يُشَابِقُهَا غَيْرُهَا
إِنْ أُرِدَتْ الْمَثِيلَا

هِيَ امْرَأَةٌ تَسْبِيهِ الْمُسْتَحْيِلَا
هِيَ امْرَأَةٌ تَسْبِيهِ الْمُسْتَحْيِلَا
هِيَ امْرَأَةٌ

تَسْبِيهِ الْمُسْتَحْيِلَا

محمد محمد الشهاوي

* زاد الرّحيل *

شعر : طارق الحزامي

(1)

حملت انكساري

وحلم المساء

غداة الندى

وهذا انتظاري يجيد العويل

وجرف المنى

وصمتي المسجى على النافذة

يريد اعتصاري

كما النافذة

(2)

أيا الغائبة خلف صمت الرّجاج

أغيثي ارتحالي

بطيف مشع

يعيد

إلى النفس ضوء المدى

ويسدي الوصايا

ويثري اندفاعي

لدفع الخطى

أيا الغائبة هل يعود الشُّروق
لتنوي الدَّماء

إلى بدئها عند تلّ العروق
وأغوي أنا سارقات الورق
وأهدي الصَّبايا

حكاي إختراقي قلاع الطُّرق
(3)

أيا الغائبة هل نسيت الوداع
وطول الغياب

وراء القلاع

ووعد المساء الذي قد مضى

وهل قد نسيت المساء وعشقي

وذاك اللّهب الذي قد طوى جمره وأنفعل
فهل قد نسيت

لأهوي - أنا - عند جمر انتظاري
(4)

وهذا الصَّفير

يروم إحتراقى تماما ،
تماما

كشمع الغواية
لغلق الجنّوب

وسمل النّوايا التي تحتمي خلف بحث العيون
ويهدي إلى القلب جرحا جديدا !
وحلما جديدا !
ويهدي انتظاري
عتاد السّرّاب

(5)

ولكنّ فصل العذاب
نأى عند قرب الرّبيع
وموج الحرير
يعير الشّبّاك
إلى النّجمتين
وغنجا بديعا
فشمسي ارتدت ثوب حزن وديع
لتسدي إلى الثغر فجر ابتسامة
وتهدي إلى القلب زاد الرّحيل

1994 . 4 . 25

قابس



نصوص تزوجت همّها ...

شعر : خالد رداوي

هي : عند انفلاق الصبح

تستيقظ ...

فوضى الروح

المتعبة ...

ترمم في

بقايا ذاكرة

منتحرة ...

هما : في ثنايا الحذاء

اثنيتين ...

كعتيق الرقص

والكبرياء ..

يقرآن أحلامهما ...

صباحا ..

ويلبسان وجهين

للعناق

عند المساء ...

هنّ : رذاذ موج

تشعل أجسادهنّ

برودة ...

توقظنا مصائرنا

.. فنولد في آخر

حشيرة الموت ...



-نساء-

جماليات يحتوين
لون الريح
ويعتلين
عرش المجاز ...
ويأسرن قلبي
بذكرى جنون
جميل
فينبتن فاكهة
من ثناء الثناء ...

-جماليات-

على جرح اللفظ
يتوضأن
صدفا جليلا ...
يخرجن من اطوارهن
إلي
عاريات ...

ولايعن
إلا برغبة في الإنتحار ...

-فاتنات-

على كل لون يهين لي
إيماء ..

على قلق التهجي
يحملن عريهن ...

على شفة الشعر والشعراء



-عاشقات-

يتحرّضن
باطراء وشعر ...
ويثأرن .. مني
كل صبح مساء ...

-الحبّية-

كلّما ابصرت وجهها
أرقتني المدائن ..
والكنائس ..
والجنائز ..
وأشياء
لم أعرفها إلى الآن ...

-السُّوق-

على مصراعيه
فسيح / فسيح
أضيق

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

من الضيق ...
القدح
على قلق الاشتهااء
تنضج في الرّغبة .. مقفلة
فيرتبك الإترّان
ويتزن
الارتباك

-إلتحام-

تكتمل لهفة الإلتحام
نوبانا ...

تسيل على جسد

الأنوثة

فحولة من صريح

الهجاء ...

- نود -

جداول من الخمر

تينع خجلا ..

نطرب لرغبة

نبضي

وحرقة شعري

فترقصن / ترقصن

حتى البكاء

- اللحظة -

تمرّ بي ... إليّ

في صمتها ..

كأنّها تقول لصاحبها :

من أنا ؟

- اشتهاؤ -

المواعيد تشتبهينا

فلا نلتقي

إلاّ في أياماء

الإيماء ...

- المدينة -

يطوّقها الفراغ

والأمانى الزائفة ...



وبعض
البعض
من الاحتراق ...

- اللغات -

بجميع اللغات
أحبك
مع كل صبح
يفضي خيوط القصيد
... ومن كل الجهات
تشرق ..

سيدة البدء والمنتهى ...

- القصائد -

يعجنها الدَّم المحترق

داخل صبيحات

الموت ..

فتوزع على
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

جثث الأحياء ...

نصوص تزوجت

همها

- العراق -

1 - وجه التنين

الباب موصدة ..

واصابع الفجر تحاول تلمس طريقها الى رأسه الثمل ، فيما كانت انفاس الضوء اللاهثة تدثر جسد - التنين - بوقفته التاريخية ، نافخا وجه العالم بحراب نيرانه الملتهبة .. لحظتها بدأت خيوط الريح تلف جسده نصف العاري ، وتستغز أمواج شعره الابيض . منذرة بعاصفة مريية .. اخذت أطرافه بالإرتجاف ، ولما يزل رأسه يغرق بالشماله منذ الليلة الاخذة بالتلاشي . فبدا كل شيء أخذا بالسكون حينما صرخ بآلم فضيع : « انتم أيها الـ ... اللعنة .. !! » قاطعه وجه - التنين - امامه في اللوحة التي لما تزل تنقصها الالوان . تأمل وقفته تلك ، وهي تعلن ثورة هذا الحيوان العملاق بملامحه المتشنجة .. فكر في تلك الليلة الصاخبة . ورغم فرحهم ذاك الا انه الوحيد الذي كان يشعر بآلم الشالهة الوحده المحاصر بالأقواء الصارخة فيه : « تعال .. تعال .. !! »

تذكر أنه منذ زمن لم يستطع تحديده وهو لا يشعر برغبة في أن يدس اصابعه في دهان الرسم . لكنه لحظة أن رجع لم يكن في رأسه غير وجه - التنين - وهو يضيق بكهفه اللعين . ساعتها أراد أن يسحب شبكة ذاكرته من بحر التذكر ، ليلتقط ما علق بها من كرات الدم ويضرب بها وجوههم المصدفة ، بيد أنه الآن يتشظى وسط غرفته المويضة برائحة الخراب ، حينها همس بهدوء وهو يمسك بفرشاة الرسم ليضع نهاية لآلم التنين :

« أنا مجرد رأس دمية ، تطفو فوق القذارة .. !! »

عندئذ كانت اقدم التنين الزرقاء تتقدم بسرعة مذهلة ، نافخا بتلك النيران المطمورة بداخله منذ سنين طويلة .. حينها لمح لآخر مرة من تحت كومة الرماد ، صورة التنين ذي القدمين الزرقاوين ، وقد تلاشى كراس دمية ثمل ..
لحظتها فقط كانت الباب موصدة ..

2 - موت

قالت له : « انتي ميتة .. !! »

وراحت تحصي تفاصيل دم الايام البعيدة من تاريخها المرقع بالوحدة ، وهي تحاول التشبث بتلك اللحظات المنفلتة من عوالمها الأخيرة قبل أن تراه ... اقتربا اكثر من حطام الجسر الخشبي بعد آخر حرب . وكانت الريح المحتضرة تسحب جثتها عن المكان ، وعويل الطيور في اول المساء ينفرز في جسد صوتها وهي تحدثه عن سنينها العشر ، مطروقة على صلبانها دون معجزة ... كان يصغي اليها بكل جوارحه ، فكانت متأكدة من هذا تماما . جلسا قرييين من بعضهما على طرف النهر ، وهي تشعر بأنها وجدت أخيرا الرجل الذي يهتم بأشائها الدفينة في ارض عزلتها .. تأملت كلماتها على وجهه المسالم ثم مسح عينيها المغروقتين ، وظل يحدق بالمشهد بشرود موحش ... جهشت الضفادع بالبكاء على ما فقد من صفارها في كل مساء ، وبدأت أنفاس الصيادين تسيل في إناء مسامعها ، مستفزة تاريخ الصوت فيها ..

حوكت نظراتها نحو حطام الجسر ، وتابعت قطار همومها دون توقف . للحظة شعرت بسيء ما يزحف على رقبتها قفزت فزعة ، فرأته وقد ذهلها منظر الحشرات الهائلة المتجمعة عليه وهي تنخر بجثته المتفسخة منذ وقت طويل ..

شاهدت شعره المتساقط عن رأسه المسلوخ ، وعينه المنطفئتين ، غائرة نحو الأسفل ، وانتبهت الى اذنه المهروسة ، فأحسست بأنه لم يكن يصغي اليها أبدا . فتمسست موته الذي لم يكن يشبه موتها بتاتا ..

طالعت المكان من حولها فاندركت أن شيئا ما ، لم يتغير ، لا النهر وتقني الضفادع ، ولا عويل الطيور ، وأنفاس الصيادين وحطام الجسر . حينها كان وحده دما المسفوح يتسلق السماء ..

ألم الإشراق

قصّة : عادل المباسي

.. جلس يتأمل ظلّه تارة وتارة يرنو إلى القمر ، كان الكون لحظتها يعزف لحنا شجياً أدركته روحه فانتشى وتضمّنت ذاته فنال خشوع الرّاهب المبتهل وعظمة الأنبياء .. ونشأ في خياله أنّ الرّب يوحى إليه أن يدع الكيان يفرق في جلال السكون كي يتمثل آياته وسرّ أنين الطبيعة المكتوم والغيب ..

هام به الخيال في دروب الرؤى حتّى توقّف أنّه يحلّق بجوارحه فوق كلّ الحدود وقد استحال كأننا شغافاً كإحساس عذب مرهف ، وظلّ مشدوداً بعينيّه إلى أعلى ، ناظراً إلى القمر كأنّما يستجديه أن ينير له السّماء سبيلاً .. وإذا عاد يتأمّل ظلّه رأى ظلّاً بجانبه قد ارتسم .. ربّما شمل ظلّه تشبّت الكيان فانتقسم ، لكنّه حين استدار إلى الخلف لمح شيخاً ينتصب وراءه متوجّها بعينيّه إلى قصّي المكان .. كان شيخاً عميق العينين ذا لحية بيضاء كأنّها الرّيد قبل أن تبده الريح فيتلاشى . توجهّ إليه الفتى بنظرة ساهمة حيرى مدثرة بالأمّ الشكّ وحرقة السؤال يتاهب لأن يولد ، لكن شيخنا أجهض السؤال إذ استحضّر من اللغة أحرفاً سارحاً بترتيبها وأرسل الكلام .. «إنّك يا ولدي حين ترونو إلى القمر إنّما تتجمله إذ أنّك تعود به إلى تخوم الزمان وقرارة الذاكرة لك وللقرآن نفس الحكاية : دعه يا ولدي ينسى » . همّ أن يسأل عن دلالة ما سمع لكن الشيخ أعرض عنه ثمّ للوهلة أدبر يسمي تاركاً وراءه كياناً غارقاً في الحيرة كأنّما اعترته دهشة الإنسان الأولى ...

أحسّ بأنّ الغموض يستبد به وبالكون من حوله . وإذا توارى القمر خلف الغيوم تبدّد ظلّه .. فراغ من حوله وظلام وفراغ في داخله وتمزّق . واشتدّ به الحنين إلى الأمّ فاحتلم جسداً منهاكاً للعودة عبر طريق معتمّة إلى بيت منزو في آخر حيّ عتيق نشأ فيه وتربّى في أحضان أمّ غمرته بعطفها وحنانها إلى أن اشتدّ عوده وأصبح يفقه بعض نواميس الوجود وأسرار الدنيا . كانت أمّاً عظيمة واسمها مريم . ولجّ إلى داخل البيت فوجده غارقاً في الظلام وحين همّ إلى التّور يريد أن يشعله أنبعت صوت متهدّج من ركن في الغرفة يسأله أن دع اللّيل يدبّرنا واجلس إليّ يا ولدي ، وحديثي أين كنت وما الذي ذهب بك عنيّ في هذه اللّيلة ..

- إنّما هو نذير تناهى إليّ من الأعماق فاستجبت وذهبت عنك لأخاطب بذاتي و ... لم أدرك معنا لكلامه لكنّه أوحى إليّ طلاسماً ورموزاً

- هل جاءك من الله وحي أم هو إنسي تحدث إليك فالتح ولم بين ؟

- بل كان بشراً يا أمّي ولقد تمثّلت ملامحه لكنني لم أفقه ممّا قاله شيئاً .

.. وحين هم إلى يد أمه تقبيلًا وجدها باردة كقطعة جليد فطوّقها يديه .. أحسّ بجسدها يرتعش ، وكانت نظرة من عينيها مضرّجة بالرّعب والخوف ثمّ أبدّرتها بالسؤال مرتجفة :
- ما الذي قاله لك هذا البشر حين حدثك ؟
لم يذكر إلّا ما تأخّر في نسق الكلام ففاجأها :
- << ... لك والقمر نفس الحكاية دعه يا ولدي ينسى >> .

دوى كلامه في مسمعها كالصّاعقة فاهتزّت جوارحها وانتفضت في مكانها كطير جريح . ثمّ أسدلت جداولها على الوجه دثارًا وقد أرتج عليها وأحسّت زلزلة في الكيان وانكسارا
إن هي إلّا لحظات خيم فيها الصمت والسكون ثمّ قامت إلى صلاتها وانقطعت عنه إلى ترتيل سورة مريم المحببة إليها واستغرقت في الابتهاال والدّعاء وقد بسطت يديها إلى الله ضارعتين تناجيه وتستغفره كثيرا ، والدّموع تنساب على وجنتيها تعري حزنًا في الأعماق مريرا . ثمّ جلست إليه فطعنها بسيف الكلام في الحشى ، يسألها أن حدّثني ، أمّاه ، عن حكايتي هذه التي تشبه حكاية القمر . ولم يكن يعلم وهو يلحّ في سؤاله أنه إنّما يسألها موتها وأنّ رواية القصة قد تسكتها أبداً وتستنزف صوتهما ..

لكنها برغم النّزيف تماسكت وانطلقت في تشكيل الكلام تقدّ الأحرف من ألها وتنتزع الكلمات من حلقها عسيرا ..

- عدني يا ولدي قبل أن أحدثك أن تحبّني أبداً وأن تبحث عني إذا ما افتقدتني . وعدني ألا تنسى وأن تحفظني ذكري .

<< لنليل أم القمر كانت صليحة بفضاء واضحة كزّقة السماء ، ولم تكن تفقه من الوجود شيئاً ، وقعت لإنليل ، أب القمر ، فارتكبت بخلبنة ولم تكن بفياً .. القمر ، يا ولدي ، ابن زنا . كذلك الأنثى حين تمسّق تهب كل كيائها وكذلك أنا لما أحببته وثقت إلى الانصهار فيه حلولا وقعت إليه صدقا وتجرّدا من دنس البشرية وظهرت ، وحين أخذت تتشكّل في أحشائي جنيناً ، أبى إلّا أن يكون لشرقيته وفيّاً فاغتال الحبّ في أعماقي وهو لا زال غضاً ندياً ، تركني غارقة في دموعي وانسحب قريبك مذ كنت في المهد صبيّاً >> .

قالت هذا الكلام ثمّ اغتمصت من قرارة الكيان أمّة كتمتها طويلا ووقعت إلى فراشها تفتسل بالدمع وترتوي منه سلسيلا ..

كان حبّه لأنّه شديداً فازدادت صورتها في ذهنه قداسة لكن إحساسا غريباً أخذ في التشكّل بداخله رغبة في الرّحيل عن الأمّ ونسيان الحكاية . ونشأ في بخليله تمرّق فضيع بين حبّ الأمّ والرّغبة في الدّهاب عنها لكنّه بعد معاناة ونزيف أليم استقرّ على قناعة بأنّه يجب أن يرحل عنها لأنّه يحبّها . قرّر في صمت أن يرحل .

آخر قطعة من الظلام تتأهب للتبدّد مستسلمة لحنمية الغياب يضرّجها الأمسى . كان الشفق مشرباً بجمرة كالفتامة لما اندس نور خافت في تلاوين ليلة أغرقت الكون في الظلماء .. قيس من نور يقذفه الرّبّ في صميم الدّيجور إرهاباً يبعث وميلاد جديد ، لحظتها كان يرسم أولى خطوات كسيرة في طريق ليس يدري برويها أو منتهاها ، فقد كان به توق إلى الدّهاب ليس يهّمه

من الرّحيل إلّا الرّحيل وربّما النّسيان ..

قضى زمنا يقاوم الذكرى يريد أن يديها فتأبى ، لكنّ الحكاية رحلت معه أو هي اتخذت فيه مستقرا .. وخطر بذفته الرجوع فاستهواه وأغرى .. حمل جرحا نازفا وكيانا ممزق الاوصال مضطهدا . حمل مأساوية سيزيف على كتفيه وعاد .

انقطع به الرّحيل والشمس إلى غروب ، كلّ ما في الكون يتأهب إلى أن يلج العتمة كمن أثقله الشقاء فهجع هجيعة الرّوى .

وجد الحيّ واجما والجدران متجهمة تذكي فيه أحاسيسنا بالتكسّس والجمود مبهمة .. تدرّج إلى داخل البيت فاستقبله باهتا موحشا .. محراب الأمومة أصبح خاليا من كلّ حركة صامتا كالقبر إلّا من تداعيات الصّبي في خياله ، خرج يسأل عن أمّه أين يجدها فقالوا له إنّها ماتت حزنا عليه وغما وأنّها تنام هناك في قبرها نومة اللّحود . « أمّاه رحلت ولن تعودني » .

هرع بحث الخطى باتجاه المقبرة .. كانت الغريبان لحظتها تحلّق في السّماء شوّما وتغنّي لحنا عميق الألم شجيا ، كالنحيب أو كمرير البكاء . جلس على القبر يبلّغ دما وقد سامه الضننى ثمّ هوى على الأرض يقبّل الثرى كائّما يابئ فراق أمّه أو هو يريد اختزال المسافة إليها والمدى .

أدرجته الفجيعة فيما يشبه الجنون فلوغل في العتمة يلبس الظلمة كساء سوادا وقد أعلن على الذات شديد النعمة وحدادا .

تضاعف اليتيم فتاه في دروب الضياع والشعور المقيت بالأجنى . كانت الأمّ فلذة وجزءا فيه فتمنّى لو يعلن هذا البعض منه التمرّد والعصيان ، لكن صورة الأمّ تتداعى أبدا في خياله فيشتد به الحزن ويطلب السلوى فلا يدرك نسيانا . كذلك هي أمّه قدسها قبالات الخلوة وظلّت حيّة فيه تأبى أن تحي من الذاكرة ، وكان كلّما أنهكته الذكرى رددّ همسا إلى طيفها « أرجوك موتي ودعيني وحيدا أكابد شقاء السنين »

<http://Archivebeta.Sakha>

حين تمكّن منه التشبّث ، جاء ته أمّه طيفا شغافا كالشذى ودعته أن يهدأ أو يحدثها ..

- أراك يا ولدي قد شقيت بعدي

- بل ضاقت بي الدنيا أمّاه وتجرّد الوجود من معناه

- قد وعدتني أن تبحث عني فما بالك تخذلني ؟

- إنّك رحلت عني إليّ فحضورك مستعرّ وغيابك أفسى من الحضور .

- ابعد عنه فهو سيفك قيودي عنك ويحرّك منّي .

أنّى لي أن أدركه وأنا لا أعرفه ، أفهل ينتهي الضارب في التيه إلى مستقرّ ؟ تركته سجين السؤال وأمّحت من أمامه لتحتمي منه بالغياب

الأشياء لا تترك إلّا بتسميتها ما يمكن أن ينقذه لا يعرف له اسما ..

توسّل إلى الضياع يسأله عن أوّل حرف فقال له إنّهُ التّذاذ اللذة والانتشاء بالنشوة . ثم ناشد الفجر نشدانا لشاني حرف في تسمية منقذه فقال الفجر : هو الدّعوة إلى القبل واللم ولغح الشوق يكوّي الشفاء احتراقا جزاء وفاقا . وجاء ه الوحي من السماء مرسلًا ببيان أن هو الحب فابحث عنه ينسك وينتذك .

تواترت أيامه تجرعه الألم وتسكب كزوس المرارة فيه فينتشي بالعذاب يستلذه ويزداد من شفاء
الهزيمة قبلا يذيب فيها بعضا من السَّجْن . ونما فيه إحساس بانكسار الذات تجتاحها الذكرى
فتبديها . ويحضن في الحلم أمه كل ليلة ثم يفيق فإذا به يحضن الفراغ .

ذات زمن كان الكون يجاهد ألم المخاض كي يلد فجرا . أفاق فإذا القرآن في المسجد يتلى ..
أحس بروحه تنتشي هائمة في فضاءات السمو وشفافية الشعور .. غادر البيت وفي نفسه تأهب
للانعتاق . اندفع يجوب الشوارع يمشي الهوينى ... وإن لمحا ارتج كيانه ، كانت تزيل الستائر
عن نافذتها فإذا النور يعانق نورا ، كانت غادة في ميعة الصبا عبقرية السحر . تملأ منها الجفن
الوسنان وجزائلا وحيدا ، فاعترى روحه اندفاع نحوها وتوق إليها شديدا .

عينه تبرح والكلام مصلوب على شفتيه لا ينقال ، وتشكل الخطاب صامتا بليغا إذ أخرج من
أعماقه غريا بهذه الفاتنة إلى العنان . كانت تداعب جزائنها في دلال منتشية بسحرها . احترقت
بين شفتيه الأحرف ، لكن ابتسامة ذائبة في الروعة ولدت من شفتيها فسقت فرحا أسكن فيه ألما
موجعا وتيبها وجرحا ، ثم تواتر عنه إلى بيتها وبه لهفة لأن يزداد من ألق ابتسامتها قدحا ...

هو ذا قلبه يكسر الطوق ويخفق .. قضى أياما يكابد العشق وبه حنين إلى لقائها . وإذا اشتدَّ
به الشوق عاد ذات فجر ليقلب قبالة النافذة لهفة لأن يراها .. أطلت من الباب رائحة الجمال تألقا
كشمس أشرقت . وإذا لمحت ارتبكت ثم أعرضت عنه في دلال وانطلقت تشكل لخطوها الموقع
ألحانا زادت نشوة على سكر فاندفع يتبعها مشدود الروح إليها شداً .

ويعد تمنع وصد تردد بينهما الحديث فاستمالها ونال منها ودأ . ثم على مر الأيام تشكلت
بينهما قصة عشق وهبت أملا في صانقة الفرج وإبانة مرارة الذكرى ، ذكرى الأم التي قيدته
بإسفاف من الألم .

ذات لقاء بينهما أخبرت أنها تحشى قدر الرجال وأنها تعيش مع أمها يجب أن يزورها ويعترف
إليها . وضربت له موعدا فجاء . ولج البيت فاستقبلته أمها . مد يدا يصافحها لكن يدها امتدت
إليه مرتعشة ثم وضعت كفيها على مقلتيها قناعا ، لكأنها رأت الفضاعة تتقمص جسدا . سكث
الكلام لحظة ، ثم رجته الدخول .. جلس صامتا ليس يدري لشدة دهشته ما يقول .

- أمك ماتت وكان اسمها مريم ؟

.....

- ترك والدك في أحشائها ورحل عنها

- وكتب علي أن أحيا يتيما شقيا

- هذا الذي أنشاك ثم ارتد وترك لوالدك جرحا وجنيئا كان صديق صباي ولقد ألتمني أن يمشق
إمراة سواي حين فتنته أمك وهجرني أحسست أنني انكسرت وكان لابد أن أستعيده وشاحا
لأنوثي واشتدت بي الرغبة في إدخاله من جديد في محراب عشقي . وأستعد له . لكن دفعت في
ذلك أفضع تضحية ، وكانت والدك قد سبقتنني إليها .

وهبني وأمك من لدنه جنيا ثم رحل عني وعنهما قصيا . هذا يا ولدي سر دفين كتمته في أعماقي
وأسكنت الألم صدري وحجبت الدمع في المأقي . يوم عودتك بعد موت أمك كانت آخر مرة رأيتك

فيها ولقد كنت قبل ذلك أتعشق رؤياك فانت تعيد إلى القلب ذكراه .. هذه التي تعشقها هي أختك يا ولدي .. تركها في المهدي ومضى فريبتها حتى أكتمل جمالها وأشرق سحرها ورأيتها ففريبتها وعلقها . وكان أن وكدت من رحم الحكاية فجيدة أخرى .

درب الحب أغراء بالفرح لكن هذا الجبار أبى إلا أن يعود مرة أخرى فيسخر منه وينتشي بآله فيرقص على شفا الجرح .. من يومها نشأ فيه سؤال مرير يستجدي جوابا : هذا الذي عبث بأمانتي وكيانتي أين أجده ؟

فجميعا في الذات وحرقة أجبها القهر في الحشى دمة تنساب على وجنتيه .. سائر والخطى كسيرة في التعميم والغموض .. أسئلة تتوالد بداخله حائرة محرقة ولا جواب . ارتد من حيث لا يدري ينش في ثنايا الذاكرة عن ذات عبث بها جبار ليس يعرفه ، عن أم ميتة ، عن أنثى أحبها وفجع فيها ليستمر العذاب علّة لوجوده أولى .

ملته الشوارع تسكع فيها كثيرا ولفظته كل الأمكنة فعاد إلى بيته جسدا مشتتا وقلبا كسيرا .. سكن إلى فراشه واستلقى .. ثم برفق ورقة لمسه أمه - حين كانت تداعبه في المهدي - انتشله الحلم من معاناته وأدرجه في فضاءات بكر ارتادتها روحه للمرة الأولى .

رأى في حلمه أنه ضارب في فلاة ممتدة يطلق صرخة نشيجا ويستمع لوجع الصدى .. ثم رأى أنثى شفاقة توشك من شفافيتها ألا ترى تأتيه من بعيد على بساط من الغيم .. كانت أنثى نورا ونارا ، على جبينها من خيوط الشمس وشاهها ، وكان ألقي الاشرار على وجهها دثارا . سألته أين تمضي ؟ قال : أبحث عن قدر أقداري ، عن أب جبار ، رتب فصول المأساة ومضى .

- لا تبحث عنه في المكان فهو في كل مكان

- لا بد أن أدركه فأبدي فيه نعمتي عليه وإحساسي بالقهر .. لا بد أن أقتله

- لن تستطيع إلى ذلك سبيلا فهو حي أبدا لا يموت

- أنشأني ثم أنكرني وحطم قلبي فأشققاني

- احذر أن تنكره فقد لا يكون بك رحيمًا وقد لا تكون « آدابا » أجزم وعفت عنه الآلهة .

قالت هذا الكلام ثم أشارت إليه مغربة ساحرة أن يتبعها ..

ظل يسير خلفها وهي مجتحة في السماء . كانت تطير باتجاه قيس من نور هناك خلف التخوم وراء المدى ..

صندوق قديم

قصة : فتحة نصري

... صبت بقايا الشاي في الكأس ، ترشفتها في كلف . مجتها بين الشفاء حتى استقر بها المقام في الخواء .. ففتحت النافذة تراءى لها الأفق قضباناً حديدية نارية ، حارقة تسبي النفوس وتشوي تقاطيعها بنار الجمر الحاقد .

جمعت لها من التنوع الفائح الأرج حزمة .

غسلتها بالماء . فلحها ريح طيبها .

ايه يا زمن الحريق الذي مد في عمر السويغات الفائرة في حنايا ذكراي

كم هدرت من الايام فيك وجالست النجيمات القصية .. أحدثها عن ليالي البيارد وروائع القديد والعطر القديم ..

صوت الناي القادم من حقول الحصاد ما زال يتردد صدها في كل كهوف هذا القلب الذي وراء الوجع .

كم سامرت القمر أممس له في رفق علّه ينير بقايا النض مني .

وقفت في عجل وهي تنتهد .. رجفات ما يجول بدواخلها صبّت الماء في كامل مساحات الحوش الواسع تذكرت أمها وهي تقول « الوسع رحمة » انظري كيف يعيش الناس في العاصمة .

اختناق و « لز وبز »

جالت فيه بالمكتسة ، لآلم الظهر عذاب لا ينتهي ... استقامت في عنت وفرشت مرقوم جدتها القديم رغم السنين ظل يحتفظ بألوانه الزاهية وأشكاله الخرافية المبهمة .

لغت شعرها المتهدل في منديلها القرمزي .. الذي حاكه لها ذات مساء .

جلست وأسندت ظهرها إلى مخدة صوفية من وبر الجمال .. كم هي مريحة .. وكم تلك السارية التي جمعتنا ذات لقاء ...

كم من الأيام تمضي والآهات المكتومة مازالت تقارع الوجع المنبجس من يؤدة ذاك الذي ينبض .

التقته ذات مساء .. حين تعطرت ولبست ثوبها الأسود وتحلّت بعقدها اللوئي ورمت بشعرها الكستنائي .. تطيره الريح الخريفية وكأنه يزيح تقاطيع أحلامها التي نثرتها ، صغيرة كانت والربيع يفتح في الخد ورد تماري النرجس والحب

كم انتظرت قدومه ... كم حلمت بنحوت الأينوس هذا المرمر الذي يخدش الذاكرة ويحيي القلب بروائح الزهور المعطرة التي تطويه روح الصندل .

استقبلت كتابها الذي تجلوه بأيامها المتواترة وما ملّت الإنتظار .

وعلى عتبة القدر الذي أخرس أمزوجة الليل اختاروا لها والروح التي داسها الوجع .

رجلا مناسبا : جسم ناعم كلام كثير وبعض العطر الرخيص الذي يلح .. كلمات عذبة متكلفة .. ظلت تسمعها .. أوف .. كم ماجت بها الجروح التي تفرحت .. هي التي رافقت جنازة امرأة

ما أحسست بالقلب ينبض . فصابرت حتى ملّ الصبر أو كاره وتلبستها الفجيعة يوم رحل عنها السنونو ذات مساء . وسرى الوجد سريران حبة رقطاء قاتلة .
نعم قلت للقهر - لا - قلت للقلب الذي وراء الجليلد لا ... أريدك مسكا وغبرا وشموسا دافئة تنبض وتغثال زمن الحريق .

عفراء لا بد أن تهجري الموت وتعيدي للشریان نبضه .. كانت تراه يراقبها بعين ذات زجاج حارق من وراء الكوة تقرأ الشعر .. وكل القصائد القديمة .
« بين ريتا وعيوني بندقيّة والذي يعرف ريتا ينحني ويصلّي للاه ي العيون العسليّة » .
كانت همساته الدافئة تزيل عنها برقع الخوف والآتي الذي ضمّخته .

لم تلامس كفيّ حمرة الحناء .. يا رائحة المسك الذي أشتهي به بأسرني ذاك العبير ويسبي ما أدمنه الأيام .. بوتائرها المناسبة أبدا وانتظرت يوم عرسي الذي وكى . سوف يأتيني .. مع الفجر سوف يلامس حمرة الشفق وراء الغيوم ويطلق بابي . لا بد أن أعشق ظله الآتي .
سئلاطير الغيوم سفرها سألهم معه بموعده نتواري فيه عن العيون قرب الساقية القديمة . سنترشف العمل المصنّى وندخل جنة الخلد التي سوف تأتي . لفت ظهرها بالشال الصوفي الأسود ، راقبت أحواض النعناع وزير الماء ..

أيام الربيع باردة في بلدتها .. لكنها تعشق هدهداته التي تسري إلى الروح فتعقب بأركانها الواحية . لقد عشقت لمسائه الحانية على الدروب المتراصة فالزعر الموشى بروائع الإكليل وأشجار « البلوط » و « الدفلة » .. تذكرها بحناء العيد .. والأمراس ومواسم الفرح البعيدة وصوت خالتي أم الهناء وهي تردد « الكنة الحنيئة وجابوها التجار وحى يا البنية تعجلها تحمار » .
تراقب كفها الذي دأمته صفره قاتلة . فقد كل أثر للحياة . وتقاطيعها ، ترسم تخشبات الزمن الذي وكى وليالي المطر . والخيل الذي يحاك في قرن الغزال والخمسة ...

رداؤها الأسود ذاك .. ما ذكرها إلا بأيام الفرح البعيد لا تظنوا أنه يلامس أحزان الأوّكين . لأنّ سواده واللبلب رافقا أنبجاس الفرحة الوليدة وعقّا أريج الزهور . كم عشقت ستائره الممتدة حيث يمضي سلسبيل ، عذبا سلسا ، رقرقا . يسبي النفوس ويرحل بها بعيدا عن متاعب اليوم التي لا تنتهي حيث كتبت خطابات عشقي ونسجت من أوتاره أحلام الصبايا .. بيوم اللقاء الوليد أنا ، وعفراء التي ضمّمتها براة الطفولة وأرادت أن تكون امرأة الآتي التي تعشق كل الزهور ورحيل السفر الذي لا ينتهي . حين التفتت كان هادئا يجمع بين الجسارة ودفء يحاكي غزيل وعنفوان الرجولة .

حدثني عن ألامه .. و « موكب العروس الذي يقترب » والشعر الناعم يخبئ نظرات شاردة وفرحة سرقت من محاجري .. دفء الأضواء التي غمرت الشارع أحالتني على أهانج خالتي أم الهناء . أيها الريم الذي حمل خطابات عشقي عد .. لقد عاد ربيعي .

جريت وفتحت صندوقتي الذي قد كتمت . وقوارير عطري وخطابا قديما . وأنوات الزينة .. فتعلبت تقاطيعي ... حدثتني فولت أيا الخوف من المستنقع الذي كان يحتويه .. رهبة الناس والناس الخوف .. قررت ساعيتها أن أنزع عني لبوس العنت والخوف القاتل الذي شل أطرافني منذ

سنين . ماجت بي هسهسات الفاني وأزلت منديلي الحريري الموشى بأريح الزهور ، أهديته للبعج
المسافر . وحملكته قلبي الطفولي .. رغم عمر السنين التي تمضي .. ما أحسست الكبير . كنت
الفتاة التي تحلم بالآتي وتقرأ القصائد .
« اختاري الحب أو اللأحب .. فحين أن لا تختاري » .

فاخترتني ونفسي وإن أحفل بالذي يحاك ، صندوق وحسابات بنكية ، ترافق رغبات كل يوم
وشهر يطرحه شهر ستصبح مشاريع ارتباط سلبت عنها أروع معاني القداسة . أي حين وتكلف
يسبي العقول ويخلخل كل ما حمله من كلكل أحزان في زمن غابت فيه أمطار حزينان عن هذه
البلدة الفائرة الملامح . ادخل أيها القسْ لأمنحك الإعتراف الأخير .

أنا امرأة عشقت ذات مساء وتشبهت التين المجفف فاكثوت بجمر الليل وتحملت قروح الذاكرة
المتعقنة . تقطع من الأيام بعضاً من سويحات لهر تمضي بسعادة الطفلة البريئة واستمر الحديث .
علمت أن صندوق أسرارها الذي حملته قلبها والمفتاح قد أفضى « ومثلها لا يذاع لها حين هس
ظننت أنها آخر الكلمات المبهمة تنكشف لها فتمسح غبار الأيام عن أحلامه وخانات الزمن الذي
أحرق أيام الشباب لامها وراء الكهولة المتأخرة . وميقانيات زمن المطر الآتي تدق نواقيسا رافقت
كل الدروب التي جمعتها » .

قامت إلى العطر شاء روتها بالماء لامستها في رفق .. حانية على أوراقها الذابلة . لقد نمت
حين نما الحلم وعبرت روائحها حين سربت أحلامها بكل الورود العابقة يوم واعده أحب أغاني
عبد الحليم ...

تهرع إلى المسجل وتقتحه ...
أي سنين تمضي وتجرف الأملنيات البعيدة .
وهي التي ذقت مرارة الماضي المعقود
كانت امرأة صامت صابرة تعشق أسرار الليل والأهازيع القروية .

كيف يمكن أن ترسم ملامحه ؟ ... فقد جرفتها السيول بكل أحابيل الأكاذيب التي حاكها صاحب
المنديل الحريري فكان رجل الظل الذي خانته ذا مساء امرأة غادرة .

فاستمدت من الغدر بلسماً لجراحه المتسترة .. ضمته إليها ورتقت آخر الجراح ... همست في
صوت متهدج أن تعرف الصقيع بعد اليوم ، ساكون ككل الآتي من الزيفون .
ليلة العيد أرادت أن توشى كفاه بالحناء .
فاستفريت أمها .

كم عرفت عن رؤية الخضاب في أيدي الغواني .. البساطة .. الحناء ... !
ماذا دهاك يا أمي تعجبني روائحها العابقة .
- بلأني الحناء يريقك حتى تلامس كفها في رفق
يخري البيت ، بل كل ركن منه ..

- ايه ليت محلات الزهور تزحف إلى هذه الربوع الجرداء فلوشي واجهة كل ركن قديم تداعى .
- أمي زهرة .. مارغبث الليلة في النوم .. ما داعب الكرى أجفاني منذ يومين .. تضحك .. عهدتك

.. عاقلة .. ألمني أن لا تشاركنيني فرحتي ليلتك تعرفين « يا أم » أنني ولدت من جديد . لقد سلبت مني قتامة الأسس المنقصة ..

- أطهني لنا قهوة « محوكة » وضعيها في الفناجين المذهبة .

- دعينا نحلي فما أجمل الليل والقهوة المضمخة بروائح البخور العابقة ..

أمي يا لذلك القلب الطافح المحب الذي يحتوي بين جوانحه ملاكا طاهرا يزرع الخير والنماء في كل البيوت القديمة المعزولة ما فارقتها البسمة قط . تترشف القهوة مثلذة ، لا تعرف إلا محبة الأولاد وطاعة الزوج ...

- عفراء ، هل وضعت لحم المسلان في صحن أخوك أمين ..

- لا ملاذ لي من الغضب كلما رأيته تراقبين المارة وأختك أدخلت .. هيا .

كم فتحت النافذة خلسة وراقبت حبات المطر . بعدها كان ألمي ويجبروتها الخارق كان جرحي ، فهل يحق لي أن أنسى ..

في يوم غائم .. ما منح المطر .. توارت فيه خيوط الشمس وذبلت أزهار القرنفل في الأرض ، مالمذي داهم هذا البيت ؟

الوجع يطوي العرائش وطعم الكدك داهمه الحنظل .

قابله بقلبي الطافح رغم أصابع الإتهام التي منه تنبني كره للناس وقلب يعتمر الأحقاد ووجه يعشق قتل كل الطيور الزاجلة .. ويرامج وهمية تفضح الذكورة .. مرفقة بقواميس باهتة لأسماء ، عاشقات مرون في الدروب القديمة . كانت الأمطار تجرف معها كل شيء السيل .. السيل يعري البراقع .. يمسح الطلاء .. وتوش الزينة . دعبه يحمل كل شيء يا أمي زهرة علي أغسل جبل الأثام التي دمرتني وألقت بي في سراييب اليأس ، دعيني أظهر .. لقد اغتسلت الشوارع من بقايا القبار .. ومن بقايا الأرزاق الميتة ..

كانت تجمع الرسائل المتناثرة قرب الساقية القديمة لقد أزال المطر كل رتوش الزينة التي لامست وجنتيها ... وتهدل الشعر ليستقبل الشارع المفرغ من محتواه . مشيت بخطوات ثقيلة .. كأنها تنوء بجراحها وككل الأحزان والخيبيات .. دخلت غرفتها في صمت جنازتي .. فتحت الصندوق قرأت خطابات مثقلة بالذكريات .. عشرون سنة مضت ... واللقاء الأخير لم تستره أخايد السنين والقلب ما عرف الخيانة ..

نظرت إلى وجه متكئ في المرأة ... داهمه الشيب واشتعل حريقا يحصي عليها عدد انكساراتها . لقد رحل مع الخطاف وسافر في كل المواسم وحمل معه سيفساف من أسماء نساء تجهلن .. لكنه ما غادر الذاكرة . لأنها ما غابت يوما عن الخوف وتوارت عن الوجوه القائمة وتطمرت ... وعدت يديها الحناء .. وعشقت الزهر وتشبهت وحم العناب إلا حين عشقته ..

فتحت النافذة تنظر الدرب على يعود .

السَّاحِ وَالزَّهْرَة

قصّة : مختار المومني
(صفات)

كنت وحيدا في زنازاتي الضيقة المظلمة .. كان الصمت ثقيلا وقد تساوى الليل والنهار واستطال الزمن كالسمرد ينهار ... وهن الجسد ... تلتجت الاعضاء وتبيست .. تخشبت المشاعر وتكلمت .. منذ أيام وأنا أحس بشيء كبير في داخلي ، وأنا أترقب الأشياء إزاء شبح الموت الذي يتجسد في ذهني إثر كل استغراقه تعيدني إلى عالمي الماضي . عالم الدم والجريمة ... يمثلني كياني بالإحساس بتنفيذ الحكم وحبل المشنقة يضيق حول عنقي فيهبوي الجسد هامدا ويبقي معلقا في العقدة مكسور الرقبة فتغشاني سكينه عجيبة وكيف لا وقد أزعجت نفسي من الوجوه المتوترة المملوءة بالأوهام والمعاني الزائفة ، وأرحتها من رؤية الأجساد الراكضة في دروب الحياة والتي يتضخم فيها ورم الجشع وحب المادة والمظاهر الزائفة .. الكاذبة .

لا أذكر منذ متى صدر الحكم في قضيتي فلقد من وقت طويل على ذلك اليوم الذي وقفت فيه في قفص الاتهام .. كان القاضي يومها ينظر في أوراق كثيرة أمامه وأحيانا يلتفت نحوي ويقول :
- إن هذا الوحش المائل أمامكم

يومها لم أكن بكامل وعيي .. كان فكري مشوشا وكان المحاكمة لا تعنيتني ... لم أنتبه إلى نفسي إلا عندما نطق القاضي بالحكم

- ونظرا لخطورة هذا السفاح هذا السفاح على أمن البشرية ، ونظرا لفضاعة ما ارتكبه هذا الوحش من جرائم في حق الطهر والبراءة ، ونظرا لوحشية عملياته الإجرامية المتكررة ... ونظرا لسلامة مداركه العقلية . فلقد حكمت عليه المحكمة حضوريا بالاعدام شنقا .

ويسرعة قفز علي شرطيان وانتزعاني من القفص الحديدي وأخذاني إلى السيارة السوداء الرابضة أمام المحكمة التي أقلتني إلى السجن حيث حشرت في هذه الزنازاة الضيقة المظلمة الرهيبة .

2

يوم ولادتي ماتت أمي ... قالوا يومها أنني طالع شؤم ... والذي هو الآخر كان يسميني " المشوم " بعد دفن والدتي أخذني والذي وإف بي بيوت الدوار عله يجد امرأة ترضعني ... كل النساء رفضن ذلك ... عاد بي والذي إلى كوخه مهجورا . هكذا حدثني والذي ذات يوم بعيد .
كان لجارنا الهادي أئانة ولدت حديثا جحشا جميلا ... لم يكن أمام أبي إلا أن يأخذ أنية وحلب الدهيمة ويرضعه . جلسها . والده كان يعمل آنذاك عند أحد فلاحي الجهة ... كان

يأخذني معه كل صباح إلى الحقل ويلفني في قشايته ويتركني حذو جذع شجرة .. كنت إذا بكيت يلغمني ثدييه أحيانا إذا أعجزته الحيلة كان ينخرط في نوبة بكاء هستيرية .. عندما كبرت أراني ثدييه .. كأننا متورمين أزرقين .

كانت طفولتي تعيسة ... عشت محترقا كصرصار .. كنت أضع مرآة في جيبتي ... كنت دائما أتطلع إلى المرأة فأرى نفسي .. ملامحي يعلوها شحوب دائم .. عيناها غائرتان .. شعري أشعث أغبر ... كنت منبوذا من الجميع .. كل أطفال الدوار يتجنبون الاقتراب مني كأنني جمل أجرب ... الكبار أيضا كانوا يشيحون بوجوههم عني كلما قابلني أحد منهم .. عشت وحيدا منبوذا ، سجيناً في زنزانة وحدتي ... وإن كنت لا أنرف الدموع فأنا أبكي في أعماقي لقد أحببت في حياتي كل شيء قبيح .. أحببت كل مشوة ... أحببت كل بشع .. كان حبي الشاذ هذا محاولة للتمرد على هذا العالم .

3

ذات يوم خريفية لا أذكره كنت منفردا في الغابة مأخوذاً بتجهم الطبيعة .. كنت أحملق في الأشجار الجرداء والطبيعة الكثيبة بغبطة عظيمة ... فجأة رأيته .. طفلاً صغيراً ... كان طفلاً جميلاً يرتدي حذاء لامعا وكسوة أنيقة .. كان يتسهم وشعره الذهبي الطويل تعبت به نسمات الخريف فاقتربت منه وعندما وصلت أمامه بسحتتي المربعة .. ارتعب مني لكنني ابتسمت له .. رد ابتسامي بابتسامة خجولة .. مددت له يدي فمد لي يده وصافحني .. وفجأة وكالبرق الخاطف غمرني خوف مفاجيء وانتابني رعدة هزت عظامي هزا .. لقد كان رجلي جنونيا ، وارتفعت على الجسد الجميل الواقف أمامي .. أمسكت بالعنق النحيل وأطبقت كفاي على العنق وأخذنا تضغطان في لذة . وفي ثوان قصيرة تدامى الهيكل الضعيف وأصبح جسدا خاويا لا روح فيه . وسمرني الرب في مكانتي كل الذي حدث أنني تطلعت إليه بسلامة ، وحينما لمحت قبسا من الحقيقة بمواجهة الموت .. استعدت إحساسي بذاتي فوجدت نفسي هادئا كأن الذي حدث لا يعنيني ولست مسؤولا عنه . هكذا عشت تفاصيل جريمتي الأولى وبعدها أصبح الأمر يتم في كل مرة بكل بساطة ويمتتهى الحرفية .. غير أنني لا أذكر عدد الذين أزهقت أرواحهم . قد يكونون سبعة وقد يكونون تسعة وربما عشرة أو أكثر بقليل .. كل الذي أذكره أن كل الذين خنقتهم بيدي القويتين كانت الصدفة قد لعبت دورا كبيرا في وضعهم في طريقي وأنني ارتكبت جل حماقاتي بدون سابق تخطيط أو ترصد .

4

كانت السماء غائمة والمطر ينزل رذاذا والريح باردة ، وكان ثمة بومة تتعق فوق شجرة جرداء ، لم يكن " س " قد تجاوز الثلاثين من عمره في فجر ذلك اليوم الخريفى الكئيب .. كان يسير في ممر ضيق ومتعرج في طريقه إلى حبل المشتقة .. كان يسير بجسده النحيل الذي ضاعف من الاحساس بنحافته ذلك القميص الأبيض الرقيق الذي كان يرتديه وذلك السروال الأزرق الضيق .. يسير وقد دلى رأسه دون أن ترتسم على سبورة وجهه أية تعبيرات وفي نفسه شعور بحاجة إلى البكاء غير أنه لم يبك .. اكثفى بالنظر إلى حبيبات المطر وهي تتناثر كعميون مقموعة . وفجأة تسمر

في مكانه ، لقد وجد أمامه زهرة برية حمراء وككل المحكوم عليهم بالموت داعبته أمنية أخيرة
فطلب من مرافقيه أن يمنحوه قليلا من الوقت ليتمتع بجمال هذه الزهرة المفتوحة .
* * *

إيه ما أعمق هذا الفرح الطفولي وهو يتسلق شراييني وأنا أرى هذه الزهرة الجميلة ... إيه ما
أضعف أن يكتشف الإنسان بعد الألوان أن حياته كانت خواء ورحيلا في متاهات مليئة بالتمعاس
والألم والشقاء .



أتري حياتي كانت ستتنتهي إلى هذا المصير المؤلم لو في طفولتي رأيت هذه الزهرة الجميلة
وعشت لحظة الفرح الطفولي وهي تتفتح في أعماقي ؟
* * *

وأخيرا صعد الدرجات الحجرية نحو حبل المشنقة ماذا ذراعيه محاولا أن يضم المقصلة
والأرض والأفق إلى قلبه .

جانفي 1995

حواء يا فاتنة البشر

بقلم : عبد الحفيظ الزواري

كلّما وقفت أمام أمواج البحر أتأملها ، سرت في نفسي قداسة الكون وكلّما أبضرت الماء يتدفق غازلتني روعة السماء تغطي بردائها نسيم البحر فانظر مليا وأحرق صوب الأفق البعيد ...

إنّما الكون فيض من المشاعر تعلوه لذة الوصال بين الكائنات الخفية . عجيب ذلك الوصال المثمر : يهب لمن يشاء عطر الوجود ويرزق من يشاء أرج النفوس ويمسك بمن يشاء دفء الحياة .

ها أنني في بحر الوجود أشاهد أمواجه تنوي فترتعد فرائصي . وذي الريح تسابق الموج فتقذفه يمنة ويسرة فإذا قطرات الماء تبعث في الروح الميته أمل الحياة فتدب ارتعاشة النفس في شفاف القلب فيحقق سريعا ويجيش منه غيم الحياة الحزين .

في ذلك الفضاء الرحب ، عانقت طيف الحبيبة فهمست في قلبها همسة الحب الوديع وامتصصت من شفتيها عنوبة لحن الوداد إلى أن ربتك في مسمعيها أغنية الوصال .

أهاجني صوتها الشجي فأسال عبرتي وأيقظ لوعتي . أرقنتي صمتها : كلما تحركت شفتاها وارتعش لسانها بلحن الوصال تمنعت العبارة . خشية عين الرقيب تلحظها وخبث في روعي لذاأذّ الأمل .

أيقظني سفور سجدها : كانت تعانق الطبيعة وقد تعرت من دنس الحياة وكانت تغتسل في نهر الخلود فيسيل الماء على أطراف الجسد ويرتوي بعد ضمها .

هي عنوبة الطبيعة تلامس جسد الانثى فتفيض منه روح الحياة وتتأجج ينابيع الأمل لتسري في المهج مباهج الفرح وتتعطر بالأرج قلوب الندامى وتخصب بالوصال أرواح العذارى .

أتعشق ذلك الجسد العاري الملتف بينبوع الطبيعة وأتملى ذلك الحسن السرمدى وقد فاضت منه أنوار الطبيعة فشخصت الأبصار وتوقف الجميع في خشوع ورتل

الكون أنغام الخلود . كذلك خلد الشاعر في ديوانه صورة للمغتسلة وهي تعانق الطبيعة فعدت من أجمل الصور . لقد تغنن « أبو نواس » في تصوير ذلك الجمال المقدس بريشة الفنان يخلق بالكلام نغما من الألحان فهو القائل :

نضت عنها القميص لصب ماء فورد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت بمعتدل أرق من الهواء
مدت راحة كالماء منها إلى ماء معد في إناء
فلما أن قضت وطرا وهمت على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني فأسبلت الظلام على الضياء
فغاب الصبح منها تحت ليل وظل الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد يراها كأحسن ما يكون من النساء

كنت أستمري جسد الأنثى فيغدو نظري سحرا ويمسي مسمعي عشقا وتتفجر في قريحتي عصور صبايبي كما تفجرت في نص الشاعر عنوبة الصبيغة . فمن تراك يا فاتنة البشر ؟

أأنت حواء من عالم الأزل أم أنت عذراء من سالف الحقب ؟
أأنت طيف يجول بلا زمن أم إنك ضيف يتصنع موتي ؟
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
أأنت بدر ينير عوالمي أم أنت سراب في حاضري وغدي ؟

إن كنت طيفا ففي أشباحك سكني وفي تاريخك مولدي وفي ذكراك أف ألف تحيتي .

أنت يا حواء صانعة الأمل ومعشوقة البشر والموجودة في ثنايا الزمن .
تحيين في قلبي كانك مهجتي وتمسين ملهمة لقلمي ودمي وتعيشين في قرار الزمن ، تنصتين لأنغام الوصال وتتحددين بجمالك ألهة القدر كذلك يعبد جسدك على مدى الحقب .



أريج الأصدااء

وتريات بقلم : محسن الكريفي

* الأريج الرابع : أسئلة على هامش أرخبيلات القالبواقوز ...

* الديباجة : حلم وسؤال

في غفوة رأيتُ رؤيا أيقظتُ
بالأنفعال بدني
رأيتني أمشي شوارع غريبه
في بلدة غريبة
في غيمة غريبة
مواكب تزاحمت
وأرجل يسرع منها الخطر
وأوجه كئيبه
أدير عيني لا أرى وجهاً وحيداً أعرفه
أسأل لا يرد أحد سؤال
ما اسم هذه المدينة ؟



الدكتور كمال نشأت

الأرخبيل الأول : وصلتني رسالتك يا « سندباد »

كعادتك أيها السندباد ... وفي إلى أعماق الامتدادات ... عشتك كانت أحلى قصيدة ... كُنّا
نحترق شعرا وسؤالا ونرجيل في مقهانا المنزوي المهجور ... أتذكر يوم كان « السانح »
يذاكرنا ؟ لأننا أكل الزبائن وآخرهم ... كان الجو صحواً إلا من عمق الانتظار ووطاة الشُرود
وترقب « قوبو » - Godo - على مفترق الطرق ... وعصف العاصف ... وزلزلات الأرض
زلزالها ... ولم تصال : « مألها » ؟ حرقت آخر نرجيلة ورحلت ... تركتني لوحدي ورحلت ...
وصرخت من بعيد ارحل رحم الله أباً طالب في حكمته الأزلية ... ثم لقيتك على مفترق الطرق
وكأنك كنت « قوبو » المنتظر ... وما أنك تكتب إلي مُجدداً فترجعني إلى نقطته البدايات ...
وهل تعود الشفاء إلى نراجيلها الأولى ؟ ... وصلت رسالتك وهي كمعدها ... شكوى ويوح سؤال
... « أخى الرائع هذا خبر لمبتدا لم يتأخر عتوة ولا جوازا نعتنا من سجوف الكهوف ...

ولندخلُ مَعُومَ الذَّاكِرَةِ المَعُطُوبَةِ ، والنَّفْسِ الذَّاوِيَةِ وألْعَابِ الشُّعْرِ الخَطَرَةِ - وإنْ كَانَتْ هَذِهِ العَوَامِلُ
أَعْطَتْ لِحَيَاتِنَا مَعْنَى وَلِتَلَّ الْفَرْلَانَ مَغْرَى وَلِلذَّاتِ أَمَلًا فِي الحُضُورِ - .

دار الزَّمَنَ واستدار وأنا في سفر دائم نحو اللّجَواب وقد تحوَّلت عوالمِي إلى عالم عميق ... إلى
سجن دَامَس ... لم يَكُنِ السُّفَرُ مَلَاذًا لِلحُرِّيَةِ بَلْ كَانَ حَقْلًا مَسِيحِيًّا لِلرَّجُلِ الهَارِبِ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ
ذَاكِرَةِ الجِنَاءِ ...

كَانَ السُّفَرُ فَاصِلَةً بَيْنَ الحِيرَةِ والحِيرَةِ وامتدادًا بَيْنَ المَوْتِ والمَوْتِ ... كَانَ يَقِينًا واكتشافًا
ومكاشفةً لِلذَّاتِ الْاَكْثَوِيَّةِ ، الذَّاتِ الْفَضِيحَةِ والذَّاكِرَةِ الْيَابِ ...

عَفُوا سَيِّدِي ... عَفُوا أَخِي هَكَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا الدَّهْرُ أَنْ تَهْتَمُّ عَلَى مَرَايَا الْحَقِيقَةِ كَاكْثَوِيَّةِ طِفْلِ
مَحَاصِرٍ بَيْنَ مَطْرَقَةِ الْخَطَا وَرَعْبِ الْخَطِيئَةِ ؟ ...

هَكَذَا تَحَوَّلَتْ ذَاكِرَةُ الشَّاعِرِ إِلَى قَلْعَةٍ تَسْكُنُهَا الْأَشْبَاحُ فَعَلَّلَ نَفْسَهُ بِبِزْوَجٍ وَعِي قَادِرٍ عَلَى مُوَاجَهَةِ
كَابُوسِ الْحَاضِرِ ... وَالتَّلَطَّعِ صَوْبَ مُسْتَقْبَلِ تَنَاقُضِهِ مَخَاطِرَ وَشَكُوكَ ... وَيَقْدِرُ الرِّيْبَةَ مِنَ الْاِرْتِحَالِ
أَوَّاصِلٍ مُزِيدًا مِنَ الرَّحْلَةِ ... إِنَّهَا قَدَرْنَا وَجَرَابِنَا وَالتَّعَشُّ الْمَحْمُولَ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَالْاَعْنَاقَ ... أَخِي
فِي الْغَرِيَةِ وَالْاِغْتِرَابِ لَقَدْ حَدَّثْتَنِي طَوِيلًا عَنِ الْقَالُوبَاقُوزِ ... أَرِيدُ السَّبَّاحَةَ عَلَى ظِلْفَائِهَا ... أَسْمَعُ
إِلَى إِنْخَاةِ الْخِيَامِ وَالنُّوقِ وَالْاَسْفَارِ عَلَى عَتِيَاتِهَا ... الْقَالُوبَاقُوزُ مَلَانِي ... وَهَمِّي الْمُرْتَجَى فَهَلْ
عَرَفْتَنِي بِالْقَالُوبَاقُوزِ ؟ ... بِخُلْجَانِهَا وَشَطَانِهَا وَأَعْمَاقِهَا وَمَحَارِيِبِهَا وَمَآذِنِهَا وَنَوَاقِيسِهَا ...
الْقَالُوبَاقُوزُ حَبِيرَتِي وَسَوَالِي ... لَقَدْ مَلَأَ الْجَوَابَ .. وَاحْتَوَقَ الْجَوَابَ ... وَمَا زِلْتُ عَلَى طَبْعِي ، مَتَى
رَمَتْ لَفْزًا إِلَّا حَلَّتْ مَكَانَهُ ... فَهَلْ تَرْضَى أَنْ أَعِيشَ الْاَلْفَازَ ؟ أَمْ تَرُومُ أَنْ تَمُوتَ بِوَصْلَةِ
السُّنْدُبَادِ ؟ هَكَذَا كُنْتُ تَسْمِعُنِي ... أَمْ أَزَاكُ قَدْ تَسْمِعْتُ الْاِسْمَ وَمُنَاحِي ؟
أَخِي ... أَرْجُو أَنْ تَصْلِكَ رِسَالَتِي ... وَالْأَ تَتَجَاوَلُ مَا حَوَتْهُ الرِّسَالَةُ ...

الامضاء : السُّنْدُبَادُ - جَدَّةُ

الأَرْغَبِيلُ الشَّامِي ، مِنَ الْمَهِيطِ وَصَلَتْ رِسَالَتُكَ يَا « بُوَيْب »

لَمْ أَسْتَقْرِ بِ يَا بُوَيْبُ بِدَايِكَ الْمُسْتَقَاةَ مِنْ قَصِيدَةِ النَّهْرِ وَالْمَوْتِ :

... بُوَيْبُ يَا بُوَيْبُ ..

إِلَيْكَ يَا بُوَيْبُ .. يَا نَهْرِي الْحَزِينِ ..

أَجْرَاسُ بَرَجٍ ضَاعَ فِي قَرَارِهِ الْبَحْرِ ..

الْمَاءُ فِي الْجَرَارِ .. وَالْغُرُوبُ فِي الشَّجَرِ ...

.. عَشْرُونَ قَدْ مَضَتْ كَالدَّهْرِ كُلِّ عَامٍ

وَالْيَوْمِ يَطْبِقُ الظُّلَامُ

وَأَسْتَقَرَّ فِي السَّرِيرِ دُونَ أَنْ أَنَامَ ...

لَمْ أَسْتَقْرِ بِ دِيْبَاجَتِكَ لِأَنَّكَ مَشْفُوقٌ بِالْخُصْبِ وَالْجَدْبِ وَلَأَنَّكَ كَالسِّيَابِ لَا يَخْرُجُ مِنَ السُّؤَالِ

إلا ليدخل رحلة سؤال ثان ... صحيح ... أن ربيعك يطرق الأبواب ، وأنت على الشرفات المودعة للغروب ولكن عنادك هو الذي أكسبك شرف العناق ... كانت رسالتك كحلم ضاعت أغلب ردهاته ... إلا أنه حافظ على سلاسل محطاته الحاجية .. وكعادة الأرخبيلات الوديعه تسند رأسك إلى التاريخ ... إلى أباطرة الحكمة ترتوي من ينابيعها الدافقة ... « ومن جرّب الكي لا ينسى مواجهه ومن رأى السمر لا يشقى كنه شرب ... كما يقول محمد شكري ... أحبيك يا بوب على بعد ... ومن المحيط يصلك عنف العصار الوديع ... وقد حكم علينا أن نقف عند الحدود ونعلن النّار عند حدودنا ... لا تخف لن نساقط إعياء فأقدامنا تمرست بالإعياء ... حتى جافها .. وعيوننا تركت السهاد يبحث عن فجوة لأوزار الأرق المدوي .. ودع نجيب محفوظ يشدّ حكيمته فقد يكون من الشعراء في قوله : « أنا من الذين تهرأت أقدامهم في معاندة الأرض ثم تساقطوا من الإعياء » ... يا بوب أراك قد تهلكت أساريك وقد وقفت عند اللغز الذي حيرك .. لغز القالوباقوز وكأنك تكتشف يوم القيامة وتهزأ أنك رجعت إلى المؤلفات المبنية واستدعيت معاجم اللغة وفنون التاريخ كي تسطر المفردة العجيبة ... ذكرتني بجيوش القناة وهي تواجه العدو .. وبالمالك يصنّون الغزاة الجدد ... كانوا يسبحون ويحمدلون ويرفعون سيفهم الصّدنة طعما في إرجاع مجد السادّتها النّجب ... وشتان بين طلعة الرّشيد يرقب الغيمة والمزنة هازنا أنه سيلقم خراجها . أقصرا أم طواعية ... وبين الوثائق الموثوق بنزواته يكسر العود ويضرب « فريدة » ويضع عند سرتها ليرة كلّ عشية .. شتان بين الإثنين وشتان بين التّعريفين .. تقول يا بوب يا نهري الحزين ... يا نهري المسافر : « جزر القالوباقوز » « Gualopagoz » « حيرتني ولكني وصلت إلى معرفتها وأنت عرف أنني إذا وضعت مشغلا في الذاكرة لا يستقرّ لي خاطر إلا بعد معرفته ... وتزأ كهزير « بشرين عانة » وتعلن النّار وكأنك تسرق النّار من الرهبانية ... وتستمّر عن الانتباه وتلقي اليقين وتقول جزر القالوباقوز جزر تقع بالاكواتور في أمريكا اللاتينية وتعيش فيها أنواع نادرة من السّلاحف سافر إليها العالم « داروين » سنة 1859 - أثناء كتابته لنظرية النشوء والارتقاء » ... وتغمضي في المنتهى كجندي ظافر ...

الامضاء : بوب : نواق الشّط

موريتانيا

الأرخبيل الثالث : وتبقى القالوباز لغز طبيعة ...

وضعت على كتفي الحمامة بيضها

وعلى فمي نسج الشبّاك العنكبوت

وتعال الأصوات غرد

مثما اعتدناك من أبد الدهور

أو ميت ؟

أم صرت صوفي الهوى

وتضاربت حولي النّعوت

أنا عفوكم

أنا أبابع كل قافية تقوت

هذا هو تعريف نور الدين درويش القسطنطيني لأناء عندما انهالت عليه سياط القوادح ...
عندما هرسه الشج والنار .. وطالته الأسئلة المخرجة الذأوية ... وكان الجواب بحجم السلاسل
والأحجار .. هو الرقص وعدم الاستكانة للجة التيار ...

أنا لا أبابع كل قافية تقوت ..

إن التي غشيتها انتبذت مكانا في السماء ...

وكلاكما سيان .. لن أبابعكما يا « سندباد » ويا « بوب » على ما وصلتما إليه .. فعلى غرابية
السؤال غربة الملاذ فكيف لديناصور الارتحال أن يطلب ملاذا وأعنايا وفاكهة وأترابا؟ وهو الذي
حفيت قدماء وليس سلاحه « وما كان لنبي أن ينام وقد ليس سلاحه » ويكفيك شرفا أن تقف
عند بوابات القالوياقوز تذكي عصارة السابق وأريج أصداء الآتي ... إن رحلتك يا سندباد لابد أن
تكون متواصلة .. الكل من متطلبات القصة .. كن عضوا بارزا وبطلا يرضي بمعانقة الحقيقة ..
ما أمر الحقيقة ! .. ما أمر الواقع ! .. وما أقدر مزاولات الطرفين ... ومع ذلك قدر القالوياقوز
والأغاني اليتيمة بـد لابد أن يحيى فينا ... عش عزيزا يا سندباد ... ابتعد عن اليقين ... إنه قاتل
أسد طيبة ... وطريق إلى السباحة في اللآلئ ... غن يا سندباد على أطراف النمش الجميل :

شاعيش بالذكرى

بأغنياتي الوحيدة - في قمي

هي لن تموت

هي لن تموت ...

وأنت يا بوب .. يا نهري الحزين .. كل الأنهار تكون دفقا جاريا ... تطهر وتتطهر .. من
الأقصى إلى الأقاصي ... فتنة وهوس وبهاء وجريان ... المياه لا تسكن البقعة ... متى رامت
مستقرًا كانت الأسن في أحلك لياليه ... القالوياقوز ليست مكانا ... القالوياقوز ليست زمانا ..
ليست أنثى .. ليست كما قلت ... لماذا أنت ظاهري ؟ .. لعلك تلامس تحوم الأندلس والبرتغال
وتحن إلى ليالي قرطبة ... وتلاوات الحمداني الباكي .. أما حنيتك إلى كلثومك فهولجي ...

يا بوب أين أنت من حفاء القدمين ومن أعاجيب الزمان وقد لكت كثيرا هذين الكلمتين ؟ ...
أين أنت من المجذوبين والمسلوبين والحشاشين والمتعهرين ؟ .. إن القالوياقوز مثل القوس تبقى
ممتدة بين الشج والتفاح ... بين النار والياقوت ... بين الأرخبيلات والخلجان ... والموجود والمفقود
كما يقول نزار قباني والمولود والمؤود ... إن القالوياقوز لا يعرفها إلا من عرفن التسكع الجبري ،
وكان من سفر إلى سفر يشحذ السؤال ... يطلق الجواب ... يرسم الفناء مطية وملاذ ... أنت
عاشق يا بوب ولكن محال فالعشق لعة في مجتمع الكبريت والملح ... وباء في الصحاري بلا نخل
ولا قمر ولا أبجدية ... أخي السندباد ... حبيبي بوب معذرة ... وتبقى القالوياقوز لغز الألفاظ ...
لغز طيبة المحير ...

خاتمة الأرخبيلات :

ما اسم هذه المدينة ؟
وأشحذ الإجابة ..
الناس ينظرون ... يعبرون دونما إجابة ...
ويا لها نظرة استرايه ! ..
أسأل نفسي وأنا أنكر حتى لغتي ..
» كيف أتيت ها هنا ؟ «
تحدّب السؤال في فمي
وتسقط الأسئلة المعذّبة
عصفورة مصابه ..
فتنفّض في مقلتي سحابه
حتى إذا استيقظت رعبا بعد حين
وجدتني أهذي أقول :
ما اسم هذه المدينة ..
ما اسم هذه المدينة ؟
وتعطر السحابة ...

